بسم الله الرحمن الرحيم

تضحية ونصر ،،،، رواية

محمود أحمد البلبول 2022

رواية

(" تضحية ونصر " 1)

هي سلسلةٌ من الأجزاءِ التي تشرحُ حياةَ المقاومين في فلسطين، وتحديداً المطاردين الذين يتعقّبُهم الاحتلال الإسرائيليّ بهدف اغتيالهم.

فيتحدّث جزءنا الأوّل عن حياة المطارد، وحالته النّفســـية التي يتخللها الشّــعُور باليأس والإحباط، والمصــاعب التي تعتريه في بداية مطاردته، وتحوّله من إنســـانٍ مليءٍ بالمشـــاعرِ إلى إنســـانٍ قابضٍ على جمرِ مشاعرهِ، ليتعامل بحنكةٍ وذكاءٍ في كلّ تفاصيل حياته.

أمّا كيف يستطيع المطادر أن يرسم كلّ تفاصيل حياته، والخطوط التي لا يقترب منها، سنراها في الأجزاء القادمة في ("تضحية ونصر" 2) من خلال حكاية بطل روايتنا أحمد.

الكاتب: محمود أحمد بلبول

آذار 2022

شكر وتقدير

بعد الحمد والشكر لله

إلى الذي أشبع روحي وعقلي عشق الأرض، إلى من منحني الشّجاعة لأخطو خطوتي الأولى في الحياة وخوض معاركها، مؤمناً بحتمية النصر... "أبي الحبيب"

إلى التي أشبعتني حبًّا وقوّة إلى جيشي الكبير الصّابر الصّامد... "أمي الغالية"

إلى رفاق الدّرب والمعتقل، نبلاء الدّم... "شقيقي وشقيقتي أحبّتي الرائعين"

إلى رفيقة العمر "زوجتي الحبيبة"

إلى أبنائي محمد وسلمى "أعذروني إذا نسيت ذكر شيء لكم فقد حاولت بكل جهدي أن تعلموا ما كان جدكم عليه"

إلى كلّ صديق وأخ وقف بجانبي وكان صاحب بصمة وفكرة في روايتي وأخص بالذكر:

الأستاذ والصديق سائد خليل نجم

الأستاذة الرائعة مريم عمر معطي

الأستاذ القدير إياد حسنات

بسم الله الرحمن الرحيم

تضحية

الفوضى في كلِّ مكانٍ، خلقوها بمجازرِهم،

بسجونِهم، ببنادقِهم.

أما نحنُ فقد استلهمنا فوضى المشاعرِ لنرتديَ جلدَنا

الحقيقيَّ المخدوشَ، والمثقوبَ بظلمِ بنادقِهم، وَنارِ

حقدِهم، لنكونَ أشدَّ خشونةً، وأكثرَ صبراً، فلمْ يمتْ

آخرُ فلسطينيٍّ؛ ليقتنعَ العالمُ بروايتِهم ومسلسلاتِهم

الكاتب

محمود أحمد بلبول 2022

– كم عمرُك؟

– 17عامًا

_ ما اسمُك؟

– أحمدُ

– هلْ قمتَ بضربِ الزجاجِ الحارقِ على الجيشِ؟

– لا

– هلْ قمتَ بالتخطيطِ للقيامِ بأيّ هجماتٍ على جيشِ الدفاعِ؟

– لا

– لكنَّ هناكَ اعترافاً عليكَ!

– كذبٌ

– حتى لوْ كانَ أقربَ أصدقائِك؟

– نعمْ كذبٌ

_ أحمدُ سوفَ أكونُ صريحًا معكَ، حتى لوْ خرجْتَ منْ هذا البابِ سالماً، سأُعيدُكَ مرّةً أُخرى، كُنْ واثقاً منْ ذلكَ.

2005

- هناكَ ألمٌ في رأسِي، وجسدي يؤلمُني، وقد بدأَ يخرجُ على جسدي بقعٌ سوداءُ غريبةُ الشكلِ، فكيفَ يبدو شكلي الآنَ يا حبيبتي؟
- لمْ أنظرْ إلى نفسي منذُ أكثر من شهرينِ إذا شاهدَني أطفالي سيخافونَ منّي، فأنا لمْ أعدْ أعرفُ نفسي؛ لذا قبلَ أنْ أذهبَ لهمْ سأقومُ بحلاقةِ شعري، واستحمَّ جيداً،

– صحيح!، أينَ وضعتَ ألبومَ صورِهم؟

– لقدْ وضعتُه المرّةَ السابقةَ في الكيسِ الأسودِ المعلقِ فوقي، ولا أستطيعُ أنْ أجدَه في هذا المكانِ الضيقِ المعتمِ، آخ ليتَني جهزتُ هذا المكانَ أفضلَ؛ لأستطيعَ أنْ أقفَ فيهِ عندما أخرجُ المرةَ القادمةَ يا حبيبتي، سأطلبُ من أطفالِي أنْ يحفروا المكانَ ليصبحَ أكثرَ راحةً، أها لقدْ وجدتُك

يجبُ أنْ أغلّفَك جيداً كيْ لا تأكلَك الرطوبةُ، و أنتَ لاتزالُ حيّاً أيها العنكبوتُ اللعينُ، لازلتُ أُفكرُ كيفَ استطعتَ أن تقتحمَ هذا المكانِ المعتمِ، فالهواءُ نفسُهُ يجدُني بصعوبةٍ، يبدو أنَّ حظَّكَ في هذهِ الحياةِ سيّءٌ مثلي، لا تقلقُ سأعتني بكَ، لكنْ عِدْنِي ألّا تخرجَ من هذهِ العلبةِ البلاستيكيةِ – خيّمَ صمتٌ قليلاً –

أشعرُ أنَّ الجنونَ دخلَ عقلِي؛ لأتحدّثَ مع عنكبوتٍ، كانَ يجبُ أنْ أستمعَ لكي منذُ زمنٍ يا حبيبتي، فالبقاءُ هنا سوفَ يقتلُني، لكنْ يبدو أنّكِ قدْ كبرتِ، وفقدتِ قدرتَكِ على إقناعِي، سامحيني على قسوتِي، لكنْ كمْ بقيَ فيكِ منْ ذخيرةٍ بعدَ هذا العمرِ، لا أعرفُ إذا كانَ لايزالُ أحدٌ يحبكِ غيري، فماضيكِ شديدٌ، وأصبحْتِ مليئةٌ بالبقعِ والخدوشِ، لكنْ لا أعتقدُ أنَّ قصَّتَنا التي بدأتْ في القاربِ ستنتهي هُنا.

البحرُ ١٩٩٨

على الضفةِ الشرقيةِ من البحرِ الميتِ، يقفُ أحمدُ على يمينِ المشهدِ شابكاً يديهِ خلفَ ظهرِه، ويراقبُ الشمسَ تختبئُ في مكانٍ ما من الضفةِ الغربيةِ مدهوشاً، يرمي عيْنه على البحرِ فيجدُ الشمسَ غارقةً، ويرفُعها إلى الأفقِ فيلمحُ بقايا شعرِها تنسابُ الهوينا على يسارِ قدميْه المنغرزتيْن برملِ البحرِ، تركضُ كائناتٌ من الطينِ الأسودِ على هيئةِ بشرٍ إلى الطرفِ الأيسرِ من خيطِ الشاطئِ حدَّ الاختفاءِ.

وكلّما توسّطَ القمرُ سماءَ البحرِ، توارتْ ملامحُ وجهِهِ الحسنةُ بلثامِ العتمةِ، وزادَ اعتقادُ الناسِ البعيدينَ عن الشاطئِ بأنَّ جسدَه الممتلئَ والثابتَ ظِلٌ ثلاثيُّ الأبعادِ لشبحٍ، أو صخرةٍ منْ الملحِ ربّما في هذهِ الأثناءِ، لمْ يكنْ يحتسبُ الوقتَ عن طريقِ الساعةِ، أوْ طولِ الظِلِّ حتى، ولكنْ بعددِ الذكرياتِ، وكم اللهفةُ إلى زوجتِه، وطفليْه محمدٍ ومحمودٍ.

قبلَ أنْ يتوجهَ إلى الأردن بأيامٍ وهوَ عائدٌ إلى منزلِه في بيت لحمَ القديمةِ، اعتادتْ أُمُّهُ أنْ تراهُ قبيْلَ كلِّ غيابٍ يمسحُ بكفِّ يدِهِ حجارةَ المنزلِ

الخشنةَ، فقالَ مازحاً حينَ رآها تتأملُه –بنبرةٍ أقربَ إلى الجدّيةِ–: "كما أنَّ لكَ حقَّ العناقِ والشوقِ في الوداعِ للحجارةِ، لكَ حقٌ وَ نصيبٌ من ذلك، فلا تغاري"، ضحِكَتْ ونظرتْ إليهِ لمدةِ دقيقةٍ أخرى، ثمَّ جذبَتْهُ من يدهِ إلى الداخلِ وأطبقتِ البابَ، وسألَتْهُ وقدْ بدا على وجهِها التوترُ: " هلْ هناكَ ما يوجبُ القلقَ في سفرِكَ يا مهجةَ قلبي؟ ".. فردَّ مبتسماً: " قلتُ لكِ ما عليكِ سوى الدعاءُ لتجارتِنا أن تنجحَ، هذهِ ليست المرّةَ الأولى التي أذهبُ فيها إلى سوريا، ولكنّها قد تكونُ الأكثرَ أهميةً ".

بعد حوالي الرابعةِ فجراً، بدأَ رجلُ الظِلِّ بنزعِ إحدى قدميْهِ من الرملِ بدعمٍ من يديْهِ الاثنتيْن، ثمَّ تلا نفسَ الحركةِ مع قدمِهِ الثانيةِ، لِيمشيَ مُثقلَ الخُطى باتجاهِ صخرةٍ معلومةٍ تبعدُ مئةَ مترٍ على يمينِهِ، كانَ قدْ أخْفى أسفلَها قبلَ يوميْن كيساً أسودَ كبيراً، ومع كلِّ خطوةٍ يحاولُ أن يتخلّصَ من تيبّسِ مفاصلِه، إلى أن وصلَ، وبدأَ يستخرجُ أغراضِه: (قطاعةِ أسلاكٍ كبيرةٍ، مرابطَ بلاستيكيةٍ، أنابيبَ مياهٍ كثيرةٍ، و ماتورِ حركةٍ)، فردَ الأغراضَ، وبدأَ يشبكُ الأنابيبَ ويربطُها، في حينِ أنَّ الجوَّ باردٌ، وأنفاسُه تُسابقُ نفادَ الوقتِ، كانَ يثبّتُ ماتورَ الحركةِ أسفلَ الأنابيبِ وعيناهُ تجولُ يميناً، ويساراً، إلى أنْ قاربَ على الانتهاءِ من تجهيزِ قاربِهِ الخاصّ، سمعَ صوتاً جعلَهُ يتوثّبُ إلى الخلفِ، تركَ ما بيدِهِ، وأخذَ يتحرّكُ بخطىً حذرةٍ

إلى صخرةٍ تبعدُ أمتاراً عنه، قَدَّرَ مرورَ نصفِ ساعةٍ، وهو ثابتٌ في مكانِهِ، ثمَّ أخذَ يحفرُ في موقعِهِ بعمقِ مترٍ واحدٍ، إلى أنْ اصطدمَ بصندوقٍ منْ خشبٍ.

استخرجَ خمسةَ صناديقَ من أماكنَ مختلفةٍ، جَرَّ قاربَهُ الخفيفَ، وهو يرفعُ الطرفَ الذي ثُبّتَ به الماتورُ إلى طرفِ البحرِ، ثمّ راحَ يجلبُ الصناديقَ يحملُها تارةً ويجرّها تارةً أخرى على الرملِ، إلى أنْ حمّلَ آخرَ صندوقٍ على طرفِ القاربِ، ودفعَهُ بكلتا يديْهِ إلى أن طفا على السطحِ، وصعدَ هو من الطرفِ الأقلِّ حِملاً ليوازنَ الثقلَ.

كانتِ السماءُ مكشوفةً، وبردُ الصحراءِ هو طقسُ البحرِ في هذهِ الأثناءِ، أخذَ وضعيةً يستقرُّ عليها، وشدَّ حبلَ الماتورِ، وأرخاهُ ليبدأَ هديرُ المحرّكِ منْ أسفلِ الماءِ كما هو المفترض، ولكنّهُ لم يعملْ، شدَّهُ مرّةً أخرى ولم يعملْ، بدأَ يلهثُ من التعبِ والقلقِ، وهو يفكّرُ، ماذا عساهُ أنْ يفعلَ، صدحَ صوتُ أذانِ الفجرِ الأولِ من الضفتيْنِ، ولمْ يتبقَّ سوى ساعةٍ واحدةٍ على شروقِ الشمسِ، سمّى اللهَ ثمّ كبّرَ بِحُرقةٍ، وصورةُ رفاقِه في الضفةِ الأخرى حاضرةٌ في خيالِه، يخشى أن يخذلَهم بعدَ ثلاثةِ أسابيعَ من الغيابِ، سحبَ الحبلَ، ولكنّه أيضاً لم يعملْ، مدَّ يدَهُ أسفلَ القاربِ يتحسسُ الماتورَ – واكتشفَ أنّه مع التوترِ، نسي أن ينزعَ غلافاً يمنعُ المروحةَ من

الدوران–، سحبَ الحبلَ مرّةً أخيرةً، وانطلقَ بالمركبةِ، وما عليها من صناديقَ.

بينما كانَ القاربُ يتماوجُ مع سرعةِ الدفعِ، كانَ قلبُ أحمدَ يخفقُ قلقاً، من أنْ يسقطَ في البحرِ، ويهلكَ، أوْ منْ أنْ تسقطَ الصناديقُ ويتلفَ حلمَ الرفاقِ، أوْ أنْ يُقبضَ عليهِ، وَعلى زوجتِه وصغيريْه، قد أعدّوا له طقوسَ الاستقبالِ، في هذهِ اللحظةِ، كانَ يعتري أحمدَ هاجسُ الخذلانِ.

مع بزوغِ الشمسِ، وصلَ أحمدُ إلى الضفةِ الغربيةِ من البحرِ، نزلَ عن القاربِ، وجذبَهُ إلى أنْ حطَّ على رملِ الشاطئِ، تناولَ قطّاعةَ أسلاكٍ من جانبِ أحدِ الصناديقِ، وانطلقَ نحوَ نقطةٍ قريبةٍ من السياجِ الذي يمنعُ العبورَ سوى من خلالِ بوابةٍ تشرفُ عليها قوةٌ عسكريةٌ إسرائيليةٌ، وأحدثَ فتحةً قبلَ أنْ تمرَّ دوريةٌ للاحتلالِ، ثمَّ رجعَ، وأخذَ يقرّبُ الصناديقَ إلى أنْ أدخلَها جميعَها عبرَ الفتحةِ؛ ليظهرَ بعدها في أريحا، وقد تدبّرَ أمرُ بضاعتِه المُهرّبةِ.

ففي الرابعِ والعشرينَ من شباط عامَ 1998، قُبضَ على شحنةِ سلاحٍ في وسطِ البحرِ الميتِ في طريقِها إلى فلسطينَ، وأُلقيَ القبضُ على المُهرّبين أياماً معدودةً، واشتعلتْ غرفُ "الشاباك" بملفٍ جديدٍ، مفادُه أنّ

أحمدَ هوَ مَن تولّى مسؤوليةَ الصفقةِ، وهرّبَ الشُحنةَ الأولى إلى فلسطينَ شخصياً.

في تلكَ الفترةِ المشتعلةِ رغمَ هدوئِها الظاهريّ، صدرَ القرارُ بالقبضِ على أحمدَ، ولمْ يعلمْ حينَها أنّ حركاتِه باتتْ مرصودةً، ومنْ نكدِ الصُدَفِ بينما كانَ يقودُ مركبتَهُ في مدينةِ أريحا، أوقفَه شرطيٌّ إسرائيلي؛ بسببِ مخالفةِ سيرٍ على حزامِ الأمانِ، وتمَّ اقتيادُهُ بعدَ التعرّفِ على هويتِه إلى مراكزِ التحقيقِ.

قبيلَ الحادثةِ بشهرٍ، تلقّى أحمدُ رسالةً منْ بيتَ لحمَ مفادُهُا: "الحضورُ للضرورةِ القصوى"، لمْ تمضِ الليلةُ حتى كانَ أحمدُ في بيت لحمَ يحضرُ اجتماعاً معقوداً في أحدِ محالِهِ في البلدةِ القديمةِ، عنوانُه: "الحاجةُ إلى السلاحِ لإكمالِ طريقِ الكفاحِ، لقدْ كانَ ردُّ أحمدَ في ذلكَ الوقتِ مفاجئاً، ومفرحاً، عندما ردَّ بعزمٍ: "لا تقلقوا، سأُنجزُ المهمّةَ على أتمّها بإذنِ اللهِ"، وطلبَ أن يُمنحَ بضعةَ أيامٍ، وطلبَ بعضَ المعلوماتِ عن الرفاقِ في الخارجِ، وشرحاً لكيفيةِ اللقاءِ، وكلماتِ السرِّ، وأرقامِ الهواتفِ.

أيامٌ قليلةٌ، ووصلتْ رسالةٌ من أريحا إلى بيت لحمَ، بأن أصبحَ كلُّ شيءٍ جاهزاً، مرفقةٌ بـِ: "أولادي وزوجتي أمانةٌ لديكم، ادعوا لي فقط".

1. كانَ أحمدُ في تلكَ الفترةِ، يمتلكُ مدينةَ ألعابٍ في أريحا، ولّدتْ لهُ علاقةً مع أحدِ الإسرائيليينَ المختصينَ في تصميمِ مدنِ الألعابِ، استثمرها لصالحِه فيما بعدُ، يعيشُ حياتَه كتاجرٍ لموادَ استهلاكيةٍ، أمينٍ وصادقٍ، يقطفُ ثمارَ حُبِّه من قلوبِ الناسِ.

قامَ بالتواصلِ مع رفاقِه في الأردنِ ليلتقيَ بهم صباحاً في الغورِ، ويبدأُ رحلتَه في عمليةِ التهريبِ، وللمفارقةِ، فقدْ كانتِ الحواجزُ الإسرائيليةُ بينَ المدنِ، والقرى هاجسَ أحمدَ الأكبرِ، وليسَ البحرَ الميتَ.

مَن قامَ بإيصالِ السلاحِ إلى بيت لحمَ لمْ يكنْ أحمدَ، بلْ كانَ الإسرائيليُّ الذي كانَ يعملُ في مدنِ الملاهي، لقدْ وضعَ صناديق الأسلحةِ في مركبتِهِ الجيبِ، ليجتازَ الحاجزَ تلوَ الآخر ليصلَ بيت لحمَ، ويوقفهَا أمامَ منزلِ صديقِهِ محمدٍ.

خرجَ محمدٌ متفاجئاً مما ترى عيناهُ، وأحمدُ يقولُ لهُ: " استلمْ "، ولكنّ ما جعلَ محمداً يبكي من الضحكِ أنّ الإسرائيليَّ سألَ أحمدَ حينَ أوصلَهُ: " أأنزلتَ الخضارَ يا أحمدُ؟ "، ليجيبَهُ بضحكةٍ خفيفةٍ: "كلو بسيدر" –كلٌ شيءٍ تمامٌ– وأطلقَ محمدٌ ضحكتَهُ المكبوتةَ: " فعلتها يا أحمدُ! خُضارَ! ضحكَت عليه والله، لو يدري الإسرائيليون ليجنّوا".

الاعتقال

من أهمّ قواعدِ الاعتقالِ:

لا تُدخلِ الخوفَ إلى قلبِكَ، ولا تبدأْ بالتخيلِ، والتحليلِ، فقطْ أقنعْ نفسَك بأنَّك بريءٌ وأنَّك سوفَ تخرجُ، وابدأْ بالدفاعِ عن نفسِك، وانسَ أيَّ عملٍ قمتَ بهِ، فبمجردِ إقناعِ العقلِ بأنّكَ بريءٌ سوفَ تبدأُ مظاهرُ البراءةِ تظهرُ عليكَ، ففي علمِ النفسِ العقلُ هو المسؤولُ عن المشاعرِ، والسلوكياتِ، فإنْ كنتَ كاذباً لنْ تظهرَ عليكَ سلوكياتُ البراءةِ لأنّك تعلمُ أنّك تكذبُ، لذلكَ تكونُ سلوكياتُكَ متضاربةً لأنَّ العقلَ يكونُ في حالةٍ دفاعيةٍ، فينتقلَ هذا إلى السلوكِ فتجدَ الحركاتِ الدفاعيةِ تكثرُ عندَ الكاذبِ من تربيطِ يديْن إلى ضيقِ بؤبؤِ العينِ إلى تربيطِ القدميْن، وحالةٍ من التوترِ منْ هزِّ القدمِ، وحكِّ الأعينِ، والأذنِ، والأنفِ، واللحيةِ، ولكنَّ بعضَ المعتقلينَ يحاولونَ عدمَ إظهارِ كذبِهم، أو توترِهم عن طريقِ عدمِ تربيطِ اليديْن، وهذا سلوكٌ يدلُّ على الراحةِ، ولكنْ في المقابلِ تجدُ بؤبؤَ العينِ ضيقاً، ومحاولةً متكررةً لتربيطِ القدميْنِ، ثمَّ فكِّهم لعدمِ إظهارِ التوترِ والخوفِ، فهذا أسلوبٌ متضاربٌ بينَ حركاتٍ دفاعيةٍ وحركاتِ اطمئنانٍ، هذا التضاربُ هوَ بذاتِه دليلٌ على الكذبِ، والخوفِ، هذا التضاربُ لا يدينُك أمامَ المحكمةِ، ولكنْ يجعلُك في موقفٍ ضعيفٍ في التحقيقِ، كلُّ ما عليكَ هوَ القناعةُ المطلقةُ بأنَّك بريءٌ، وأن تبدأَ بالشعورِ بالظلمِ، وتدافعَ عنْ نفسِك، وكأنَّك مظلوم.ٌ

نعم لقدْ تميزَ أحمدُ بهذهِ القدرةِ حينَ تمَّ تحويلُه إلى المسكوبيةِ؛ كانتْ هذهِ البدايةُ للمعركةِ، لقدْ كانَ مستعداً لها كلَّ الاستعدادِ، فتجاربُهُ العديدةُ أكسبتْهُ الخبرةَ الكافيةَ، وجعلتْ نسبةَ الصبرِ لديْهِ تفوقُ سجّانَه، وقدرةُ التحليلِ، ورسمُ السناريوهاتِ لديهِ كانتْ تؤهلُه ليصبحَ مخرجاً سينمائياً، يدخلُ المحققَ في قصةٍ، ويخرجُهُ من قصةٍ أخرى، ليسَ لها أيُّ صلةٍ في موضوعِ التحقيقِ، فقدْ كانَ يعتبرُ أنَّ الكلامَ في الموضوعِ الذي يطرحُهُ المحققُ خطأً، مهما كنتَ ذكياً سوفَ تخطئُ، ولكنْ تحَدّثْ في أيّ موضعٍ من عقلِكَ ليسَ لهُ أيُّ علاقةٍ في قضيتِكَ، وحاولْ أنَ تبرزَ شخصيةً غيرَ شخصيتِك، لا تُظهرِ الحنكةَ والذكاءَ بلْ أظهرِ البساطةَ وبعضَ الخوفِ، لكنْ إذا شعرتَ بأنَّ هذهِ الشخصيةَ سوفَ تؤثرُ على ثقتِك بنفسِك، استبدلْها بشخصيةٍ أكثرَ قوةٍ كي لا تضعفَ، ولا تستقرَّ على شخصيةٍ محددةٍ، يوماً حزيناً وتكلمْ بحزنٍ، ويوماً قوياً ولا تريدُ التكلمَ، اجعلْ الشاباكَ يعجزُ عن تحليلِ شخصيتِك، لكنْ في النهايةِ أشعرْهم بأنّك بريءٌ.

يتحدثُ أحمدُ: " أنا الآنَ داخلَ زنازينِ التحقيقِ، أشعرُ وكأنني في عالمٍ آخرَ، أكذبُ على نفسي إذا قلتُ أنني لا أشعرُ بالخوفِ، لكنني أمتلكُ القدرةَ والخبرةَ التي سوفَ تساعدُني، أحتاجُ إلى الراحةِ أولاً، ثم يجبُ أنْ أضعَ برنامجاً لكسرِ الروتينِ القاتلِ، كما يجبُ أنْ أُقنعَ نفسي بأنَّ هذا

بيتي الآن، لا يوجدُ بيتٌ أجملُ من بيتي، سوف أرتبُه وأجهزُه للعيشِ فيهِ مدةً طويلةً ".

اليومُ الأولُ:

"كانَ يجبُ أنْ أستعدَّ نفسياً لفترةِ التحقيقِ، كنتُ أجلسُ كثيراً مع نفسي، أشحنُ نفسي بالعزيمةِ والإيمانِ، يا إلهي ما أطولَ اليومَ الأولَّ، وكأنّهُ سنةٌ بأشهرِها وأيامِها، أنامُ وأستيقظُ عدةَ مراتٍ وأشعرُ كأنَّ اليومَ لمْ ينتهِ، ما هيَ إلاّ لحظاتٌ وإذا بي اسمعُ صوتَ أقدامٍ، يَفتحُ شباكاً صغيراً من تحتِ البابِ، ويضعُ الطعامَ، ثم يذهبُ، لقد كانَ الطعامُ بيضةً ورغيفَ خبزٍ تناولتُها رغمَ مذاقِها السيءِ، لكنّي احتاجُ إلى الطعامِ والطاقةِ؛ كي أستعدَّ للمواجهةِ في أيّ وقتٍ.

أعتقدُ أنني يجبُ أنْ ابدأَ بوضعِ برنامجٍ للتغلبِ على هذهِ المرحلةِ التي يعتقدُ الشاباكُ بأنَّها من أنجحِ المراحلِ التي تضعفُ السجين، وتؤدي به للسقوطِ والاعترافِ.

الإنسانُ بطبيعتِه إجتماعيٌّ، وبعزلِه عن المجتمعِ والحياةِ يشعرُ بأنّه ليسَ إنساناً، وتضعفُ من نفسيتِه وتجعلُه يتمنى الموتَ على البقاءِ لوحدِه،

أيضاً تجعلُه مثلَ العطشِ للتكلم ِمع أحدٍ حتى إذا ما شاهدَ أولَ إنسانٍ، أو جلسَ أولَ جلسةٍ مع المحققِ تجدُه يشعرُ بسعادةٍ، وهو يتحدثُ معَهُ.

سوفَ أستغلُّ الفرصةَ، وأتفرغُ لواجباتي الدينيةِ والرياضيةِ، أقسّمُ يومي لعبادةِ اللهِ تعالى، وللقيامِ بتمارينَ رياضيةٍ، ثم أقومُ كلَّ يومٍ بتمرينٍ رياضيٍّ يختلفُ عن الاخرِ حتى لا أشعرَ بالملِ من الرياضةِ، أما معْ مَنْ سأقومُ بالتحدثِ لأشبعَ حاجتي للتكلمِ فهلْ يوجدُ أجملُ من محادثةِ اللهِ؟ ادعوهُ واستنجدُه، وأسألُه السلامةَ والمغفرةَ.

لقد مضى أسبوعٌ حسبَ تقديري، كنتُ أعرفُ الوقتَ من وجباتِ الطعامِ: الفطورِ، والغداءِ، والعشاءِ، لكنِ الآنَ بدأتُ أضعفُ لقد تذكرتُ زوجتي وأولادي، لقد كانتْ هذه المرةَ الأُولى التي أُسجنُ وأنا متزوجٌ، كانتْ كلُّ اعتقالاتي السابقة وأنا أعزبُ، بينما هذه المرةُ لقد تركت خلفي زوجةً وطفليْن، بدأتْ عيوني تدمعُ عندما تذكرتُهم، لقد حاولتُ أن أحبسَ دموعي حتى سمعتُ صوتَ أقدامٍ وسلاسلَ، ثم صوتَ أقفالِ البابِ وهو يفتحُ، نعم لقد بدأتُ المعركةَ عندما بدأتُ أشعرُ بالضعفِ، لكنّي الآنَ يجبُ أنْ أسترجعَ قوتِي، وثقتي بنفسِي، لكنْ كيفَ وأنا أشعرُ بالحزنِ على عائلتي، والخوفِ منْ بدءِ المعركةِ، هذه المشاعرُ سوفَ تضعفُني خلالَ مواجهةِ المحققِ ماذا أفعلُ؟؟؟ فكرْ بسرعةٍ يا احمدُ...

لنْ أتكلمَ مع أحدٍ، سوفَ ألتزمُ الصمتَ طوالَ فترةِ الجلسةِ مع المحققِ، نعمْ هذا الأسلوبُ المناسبُ، أنا الآنَ أسير في أروقةِ مركزِ التحقيقِ، يدايَ وقدمايَ مقيدتانِ، ووُضعَ على رأسي كيسٌ ذو رائحةٍ عفنةٍ، وبعدها فُتح البابُ وسرتُ إلى الداخلِ، أجلسَني السجانُ على الكرسي، قيّدَ يديَّ بحديدِ الكرسيِّ من الخلفِ، ونزعَ الغطاءَ عن رأسي.

الضابطُ يجلسُ على مكتبٍ وكرسيٍّ فاخرٍ وأمامَه جهازُ حاسوبٍ، بقيَ يعملُ عليهِ، وأنا أنظرُ، و كنتُ ملتزمَ الصمتِ، دامَ الصمتُ ما يقاربُ العشرَ دقائقَ حتى نطقَ المحققُ: " أهلاً وسهلاً سيد بلبول نورتَ المسكوبيةَ ."

لقدْ علمتُ وقتَها أنّني في مركزِ تحقيقِ المسكوبيةِ، ومع هذا فقدْ بقيتُ ملتزمَ الصمتِ.

المحققُ: اعذرني سيدُ أحمدُ كنتُ مشغولاً ببعضِ الملفاتِ، ولم أعرّفْ عنْ نفسي، أنا صديقُك كابتنُ صبري.

أحمدُ: الصمتَ الصمتَ.

المحققُ: سيدُ أحمدُ أنا أتحدثُ إليك، لمَ لا تردُّ؟ أَأَنتَ فاقدُ النطقِ؟ ماذا بكَ؟

أحمدُ: نعمْ، لقد بقيتُ ملتزمَ الصمتِ، وهو يتكلمُ ولا أبدي أيَّ إيماءاتٍ في وجهي حتى لا تظهرَ عليَّ ملامحُ الخوفِ، أو العندِ.

يكملُ أحمدُ: " بدأَ المحققُ صبري يصرخُ: " يا حيال، يا حيال "، ماذا فعلتُمْ بالسيدِ أحمدَ، لمَ لا يتكلمُ؟! ".

هنا حاولَ المحققُ صبري أن يستخدمَ أسلوبَ المحققِ الجيدِ الذي يخافُ على المعتقلِ، أي: (الشرطيُ الجيدُ)، و(الشرطيُ السيءُ)، وهذا الأسلوبُ يُسمى: (BAD AND GOD POLIC)؛ حيثُ يعملُ الشرطيُّ الجيدُ على إشعارِ السجينِ بالراحةِ والاطمئنانِ له، وأنهُ يريدُ مساعدتَهُ، ولكنْ في المقابلِ يجبُ على السجينِ أن يتعاونَ، وفي حالِ رفضَ السجينُ ينسحبُ بلطفٍ ليأتيَ المحققُ السيءُ الذي يستخدمُ كلَّ الأساليبِ المذلةِ التي تجعلُ السجينَ يطلبُ عودةَ المحققِ الجيدِ، وفي أكثرِ الأحوالِ يكونُ الاعترافُ عندَ المحققِ الجيدِ.

مع هذا بقيتُ ملتزمَ الصمتَ، حتى مع كلماتِ المحققِ صبري المعسولةِ، وقبلَ أن يخرجَ اقتربَ من أُذني؛ ليهمسَ:" حبيبي أحمدُ، حرامٌ بس على أولادِك وزوجتِك"، ثمَّ أنهى حديثَه، وخرجَ ليدخلَ محققُ آخرُ ضخمُ البنيةِ ذو نظراتٍ حادةٍ، ويصرخُ: " أنتَ أحمدُ؟!، أَتعتقدُ بأنكَ رجلٌ؟! "، ثمَّ بدأَ يصفعُني ويصرخُ: "ألا تريدُ أن تتحدثَ؟! "، ويقفزُ فجأةً

ويضربُني بقدمِه على وجهي، فبدأَ جسمي ينزفُ و دمي يسيلُ، وأقومُ بكتمِ أنفاسي للحظاتٍ، و أرفعُ رأسي، ثم بدأتُ بالصراخِ بأعلى صوتي، و أنا أنظرُ في عيْنيْه؛ ليتوقفَ عنْ ضربي.

المحقق: " أخيراً استيقظتَ حبيبي، أنتَ هنا في مركزِ التحقيقِ، فإنْ لمْ تتكلمْ بإرادتِكَ نحنُ نعرفُ كيفَ نجعلُكَ تتكلمُ ".

نعمْ، يسمى هذا في التحقيقِ:

(عمليةُ كسرِ الحاجزِ الأولِ)، وهو التكلمُ حتى لو بمجردِ التعريفِ باسمِكَ وعمرِك، ويعتبر المحققُ أنّهُ أنجزَ المرحلةَ الأولى بنجاحٍ؛ لذلكَ تجدُ كثيراً من المحققينَ أولَ سؤالٍ يسألُونَه: "ما اسمُك؟ "، هلْ يعني أنّهُ لا يمتلكُ اسمَك؟!، أبداً، إنما يريدُ أنْ يكسرَ الحاجزَ الأولَ.

أغمضتُ عينيَّ قليلاً؛ لأكتمَ غيظي، وأشحنَ نفسي بالصبرِ، لأجدَهُ يصفعُني مرةً أخرى، ويصرخُ وَيقولُ: "بماذا تفكرُ يا نجسُ؟، سوفَ تبقى ذليلاً هنا، سوفَ أجعلُ منكَ الكلبَ الخاصَّ بي"، ثم صمتَ هنيهةً، وعاودَ الصراخَ، والإهانةَ، والضربَ حتى فتحَ المحققُ صبري البابَ بسرعةٍ: " ماذا تفعلُ؟، لماذا تضربُه؟، اخرج من هنا، انصرف"، ثم يقولُ: " سيدُ أحمدُ، اعذرْنا عن هذا التصرفِ غيرِ اللائقِ، يجبُ أن تستريحَ، سوفَ أُعيدُك إلى زنزانتِكَ لتستريحَ".

تمَّ اصطحابي إلى زنزانةٍ جديدةٍ أكثرَ نظافةً، نعمْ، لقدْ انتصرتُ في هذهِ الجولةِ، ولكنْ يجبُ أنْ أُجهّزَ نفسي للجولةِ القادمةِ، لنْ أفكرَ في زوجتي وأولادي؛ لأنّني سوفَ أضعُفُ، وإذا ما ضعفتُ سوفَ أعترفُ وهذا لنْ يجعلَني ألتقي بهم لسنينَ طويلةٍ.

لقدْ جعلَني الانتصارُ في أولِ جولةٍ أشعرُ بالثقةِ، لهذا سأجهّزُ نفسي للجولاتِ القادمةِ فَهُمْ يستخدمونَ معي أسلوبَ المحققِ الجيدِ، والمحققِ السيءِ، سأعملُ على استغلالِهم وألعبُ بهم بشكلٍ تدريجيٍّ؛ حتى لا يشعروا بِذكائي، سأعتمدُ دورَ الحزينِ في الجولةِ القادمةِ، وسأستغلُّ المحققَ الطيبَ (الخبيث)؛ ليريحَني، يكفيني التفكيرُ الآنَ، يجبُ أنْ أستريحَ، فلنْ أُفكرَ في شيءٍ غيرَ النومِ.

بقيتُ لساعاتٍ أحاولُ النومَ، ولمْ أستطعْ، أفكارٌ، وتخيلاتٌ تراودُني، ما إنْ غفوتُ حتى استيقظتُ على صوتِ الأقفالِ تفتحُ، يدايَ مقيدتانِ لا أرى شيئاً من الكيسِ العفنِ، قادوني بسرعةٍ لأجدَ نفسي مقيداً بالكرسي، ثمَّ رفعَ الكيسَ عنْ وجهي، كما توقعتُ.

المحققُ صبري:

_ أهلاً وَسهلاً سيدُ أحمدُ، كيفَ حالُك اليومَ؟

_أحمدُ: الحمدُ لله.

_المحققُ صبري: جيدٌ، والحمدُ للهِ أنّكَ أصبحْتَ تتكلم،

_كيفَ وجدتَ الزنزانةَ الجديدةَ؟

_أحمدُ: الحمدُ للهِ، أفضلُ من الأولى.

_المحققُ صبري: أتمنّى أنْ تكونَ قد استرحتَ جيداً.

_أحمدُ: صدقاً لا.

_المحققُ صبري: لماذا؟

_أحمدُ: لمْ أستطعِ النومَ كفايةً.

_المحققُ صبري: حسناً سيدُ أحمدُ، لنْ أُطيلَ عليكَ كثيراً اليومَ، وأتمنّى أنَ تتعاونَ معي.

_ ماذا تحبُّ أن تشربَ؟

_ شاياً، أم قهوةً؟

_ أحمدُ: أفضّلُ الشايَ.

_المحققُ صبري: كيفَ تحبُّهُ؟

_ حُلواً، سكّراً قليلاً.

_أحمدُ: كما تريدُ لا يهمُّ، المهمُّ أنّي أريدُ أَنْ أخرجَ منْ هُنا.

_المحققُ صبري: لماذا يا سيدُ أحمدُ؟ _هل ضايقناكَ بشيءٍ؟

_ أحمدُ: عبستُ وجهي قليلاً، وزعقتُ بصوتٍ مبحوحٍ يدلُّ على الحزنِ: كلُّ ما فعلتموهُ لي، ولمْ تضايقوني! أنا بعيدٌ عنْ أهلي، وَبقيتُ لأكثرَ منْ أسبوعٍ، وأنا أجلسُ في زنزانةٍ لوحدي، وتقولُ لي: هلْ ضايقناكَ بشيءٍ! والبارحةَ هجمَ عليَّ زميلُكَ كالمسعورِ، وكلُّ هذا وتجيبُني بكلِّ برودٍ: هلْ ضايقناكَ بشيءٍ!

_المحققُ صبري: أشعرُ بك، وأنا شخصياً غيرُ راضٍ عنْ هذا، ولكنّ هذا عملُنا وأنتَ متهمٌ بقضيةٍ كبيرةٍ.

_أحمدُ: أيَّ قضيةٍ؟!، وأيَّ عملٍ؟!، أنت تمزح! أنا لديَّ أطفالٌ وزوجةٌ.

قطبَ المحققُ صبري وجهَهُ، وكأنّهُ أستاذٌ في التنمرِ وصرخَ بانفعالٍ مصطنعٍ: "أعتقدُ أنّكَ أعلمُ بما عملتَ، لا تظهرِ الغباءَ عليَّ، أنا أُريدُ أن أُساعدَك يا غبيُّ ".

_أحمدُ: تريدُ مساعدتي في ماذا؟

_المحققُ صبري: لا تظهرِ الغباءَ الآنَ، ملفُك أسودُ منذَ أن كنتَ في عمرِ السابعَ عشرةَ سنةً، أكثرُ من عشرةِ اعتقالاتٍ ونشاطاتٍ لمنظماتٍ إرهابيةٍ.

_أحمدُ: كلُّ اعتقالاتي كانتْ ظُلماً، وأَنا الآنَ مظلومٌ.

_المحققُ صبري: حسناً أنا أُريدُ مساعدَتَك، فقط افتحْ لي قلبَك، ودعْنا نتعرفُ على بعضِنا أكثرَ.

_أحمد: تفضلْ ماذا تريدُ أنْ تعرفَ.

_المحققُ صبري: ما أسماءُ اصدقائِك؟

_أحمدُ: لماذا تريدُ أسماءَ أصدقائي!

_المحققُ صبري: ألمْ تقلْ إنّك تريدُ أنْ تتعاونَ معي فقط قلي أسماءَ أصدقائِك.

_أحمدُ: حسناً: (محمدٌ، عماد، عليٌّ، محمودٌ، أحمدُ)

_المحققُ صبري: نعمْ، هذا الذي أُريدُه، ما علاقتُك بأحمدَ؟

_أحمدُ: فقطْ قريبي.

_المحققُ صبري: فقطْ قريبُك؟

_أحمدُ: نعمْ.

_المحققُ صبري: أنتَ الآنَ بدأتَ تكذبُ، وأنا صراحةً لا أحبُّ الكاذبينَ.

_أحمدُ: إذنْ أنا كاذبٌ، فليسَ هناكَ داعٍ لتسمعَ كلامي.

_المحققُ صبري: لا، سوفَ أسمعُ كلامَك لآخرِه؛ لأنّي أقسمتُ أنْ أساعدَك، لكنْ أتمنّى أنْ تكونَ صادقاً معي.

_أحمدُ: إنْ شاءَ اللهُ، فأنا لمْ أتعلّمِ الكذبَ في حياتي.

في تلكَ اللحظاتِ كانَ أحمدُ مثلَ الذئبِ اليقظِ في مواجهةِ الثعلبِ الماكرِ.

_المحققُ صبري: محمدٌ ما علاقتُك بهِ؟

_أحمدُ: جاري، وصديقُ المدرسةِ.

_المحققُ صبري: حسناً، هل حصلَ وأنْ عرضَ عليكَ محمدٌ أنْ تعملَ معهُ في أيِّ شيءٍ؟

_أحمدُ: أيُّ عملٍ قصدْتَهُ؟

_المحققُ صبري: يعني بالمقاومةِ، أو بالسلاحِ؟

_أحمدُ: ما هذا الكلامُ، محمدٌ يعملُ في هذا الأمرِ، مستحيلٌ!

_المحققُ صبري: أنتَ ما رأيُك؟

_أحمدُ: أنا ومحمدٌ جيرانٌ فقطْ لا غيرُ، ولا أعلمُ عنهُ أيَّ شيءٍ.

_المحققُ صبري: حسناً، اذهبْ، واسترحِ الآنَ، وفكّرْ في كلِّ ما قلتُه لكَ؛ لأنَّ قضيّتَك صعبةٌ، فإنْ لمْ تساعدْ نفسَكَ ستقضي سنيناً طويلة ًفي السجنِ، وفكّرْ جيداً في عائلتك.

_ أعادَني إلى الزنزانة_ِ

وبدأتُ أفكرُ في كلِّ ما قالَه لي، يبدو أنَّ أحمدَ قد اعترفَ عليَّ، أوْ ممكنٌ لمْ يعترفْ، اعترفَ، أو لمْ يعترفْ لا يخصُّني في شيءٍ، أنا

بريءٌ، لكنْ لماذا ذكروا اســـمَ محمدٍ؟، فلا يوجدٌ أحدٌ ممّن شـــاركوا في العمليةِ يعرفُ اسمَه، نعمْ، أعتقدُ أنَّ هناكَ شخصاً آخرَ في التحقيقِ.

بقيْتُ أفكرُ طوالَ الليلِ، هلْ يمكنُ أنَّ الجماعةَ في الأردنِ مخترقون؟ يا إلهي! لقدْ آلمَني رأسـي من كثرةِ التفكيرِ، لمن كانتِ الجولةُ الثانيةُ اليومَ، بدايةُ الجولةِ كانتْ لصالحي، أمّا نهايتُها كانتْ لصالحِه، لقد استطاعَ أن يوثرَ عليَّ، ويجعلَني أفكرُ طوالَ اليومِ، ولأجلِ ذلكَ أنهى الجلســـةَ بعدَ ذكرِ أســـمائِهم ليجعلَني أبقى أفكرُ طوالَ الليلِ، يجبُ أن أســـتريحَ، وأن أحاولَ النومَ.

أمضـــيتُ الوقتَ وأنا أحاولُ أنْ أغفوَ، إذا غفوتُ أحلمُ بكوابيسَ مزعجةٍ، ثم أستيقظُ، نعمْ، لا يُوجدُ أسلوبٌ مناسبٌ الآنَ غيرُ التقربِ إلى اللهِ، فهوَ الآنَ وكيلي، وهل يُوجدُ أجملُ من أنَ تعلمَ أنّ اللهَ وكيلُك؟ وأنّك لستَ لوحدِك؟ وهلْ يوجدُ أجملُ مِن أنْ تعلمَ أنّهُ لنْ يصـيبَك إلّا ما كتبَ اللهُ لك؟ نعمْ، في ذلكَ الوقتِ تحديداً تشـــعرُ في قيمةِ أنَّ اللهَ يرعاكَ، اعتكفتُ على الصـــلاةِ، وعلى ذكرِ اللهِ، وبدأتُ أرتلُ بعضَ آياتِ القرآنِ الكريمِ التي أحفظُها، وعقلي يحدّثُني أنّ الجولةَ القادمةَ ســـتكونُ أكثرَ صـــعوبةً، لقدْ بقيتُ هذهِ المرةَ أكثرَ منِ أربعةِ أيامٍ، هل يريدونَ أن يســـتخدموا أســـلوباً جديداً؟ أو يريدُ أن يجعلَني أفكرُ أكثرَ، ويعتقد أنّي

تأثرتُ بما قالَه لي؟ إذا بقيتُ أنتظرُ أن يبدأوا هم بمخططِهم، سوفَ أكونُ في موقفٍ ضعيفٍ، يجبُ أنْ أبدأَ أنا، وليسَ هم.

استنشقتُ أنفاسي، ووقفتُ على قدميَّ؛ لأبدأَ أصرخُ بأعلى صوتي وأنا أطرقُ بابَ الزنزانةِ: " يا حيال "، " يا حيال "، افتحِ البابَ أنا لا أستطيعُ أن أتنفسَ، افتحِ البابَ، بقيتُ بضعَ دقائقَ وأنا أصرخُ، حتى جاءَ أحدُ الجنودِ يصرخُ عليَّ:

"اخرسْ، عربيٌ نجسٌ"، هو يصرخُ وأنا أصرخُ: "أُريدُ أن أُقابلَ صبري"، لمْ يستمعْ ليَ الجنديُّ دقائقَ حتى سمعتُ صوتَ أقفالَ البابِ تفتحُ، قيّدوا يديّ وعصبوا عينيَّ، لكنْ هذهِ المرةُ تم سحبي بطريقةٍ أكثرَ همجيةً لأجلسَ على كرسيٍّ صغيرِ الحجمِ، وكأنّه كرسيُّ أطفالٍ، وسادَ الهدوءُ فجأةً، نعمْ كما توقعتُ مرحلةً جديدةً من التحقيقِ لا وجودَ للمحققِ صبري.

استنشقتُ أنفاسي بهدوءٍ، وأنتظرُ ما هو قادم، هل أُضربُ؟ أو يُنزعُ الكيسُ عن عيْني؟ وخلالَ بضعِ ثوانٍ، وضعتُ عشراتِ الاحتمالاتِ، ما التالي؟ لا يهمُّ، المهمُ أَن أكونَ في وضعٍ نفسيٍّ مستعدٍ.

نزع الغطاء عن وجهي، نعم، هذا أسلوبٌ جديدٌ لمْ أسمعْ بهِ منْ قبلُ، لقدْ وجدتُ نفسي محاطاً بسبعةِ محققينَ بشكلٍ دائريٍّ وأنا في

الوسطِ، لمْ أحدقْ بهم، ثوانٍ حتى بدأوا بتوجيهِ الأسئلةِ: "أينَ السلاحُ؟، لا تفكرْ أنْ تكذبَ، انظرْ لي عندما أُكلمُك، اسـمعْ يا كذابُ، سـوفَ تقولُ الحقيقةَ الآنَ، و إلاّ سوفَ أفعلُ، وأفعلُ..."، لقدْ كانوا مثلَ قطيعِ الكلابِ المسعورةِ، لمْ أستطعِ التفكيرَ من الصراخ ِعندما كنتُ أحاولُ أن أراوغَ، بدأوا بالصـراخِ من كلِّ اتجاهٍ، لقد بقيتُ أكثرَ من خمسِ سـاعاتٍ، يذهبُ محققٌ، و يأتي آخرُ، عندما أعادوني للزنزانةِ لمْ أضعْ رأسي حتى غرقتُ في النوم ِ.

لمْ أسـتيقظْ على صـوتِ أقفالِ البابِ؛ لأنّني كنتُ غارقاً في النومِ، يبدو أنه وقتَها لمْ أنمْ غيرَ سـاعتيْن حتى اسـتيقظتُ على دلوِ ماءٍ باردٍ فوجدْتُ نفسي مرةً أخرى أمامَ المحققينَ، لمْ يعطوني وقتاً حتى أفكرَ مع نفسـي، اسـتمرَّ التحقيقُ هذه المرةَ لوقتٍ أطولَ، كنتُ أحاولُ ألّا أسـتمعَ لهمْ، وأنْ أُغمضَ عينيَّ لأسـترقَ غفوةً، حتى اسـتيقظتُ على صرخاتِهم، وأحياناً كنتُ أُصفع وأُركل حتى انفجرتُ، وبدأتُ بالصراخِ: " أنا بريءٌ، أنا بريءٌ "، ما أن أصـمتَ حتى يعودوا كما كانوا، لقد اسـتمرّ الوضـعُ هكذا مدةَ أسبوعٍ والمحققينَ يتناوبونَ عليَّ، كلُّ محققٍ ساعةً، أو ساعتيْن، كنتُ بحاجةٍ إلى النومِ والطعامِ، لقد بدأتْ ثقتي بنفسي تضعُفُ، وشـعرتُ في تلكَ اللحظاتِ و كأنّي لسـتُ إنسـاناً حتى شـعرتُ بأنّ هذا

يكفي، يجبُ أن أســتريحَ، أقدّمُ شــيئاً مقابلَ أنَ أســتريحَ: "أريدُ أن أكلمَ كابتنَ صبري".

_ أحد المحققين: ماذا تريدُ منه.

_أحمدُ: _عبستُ وجهي_، وقلتُ: " أُريدُ كابتنَ صبري الآنَ ".

_المحققُ: حسناً، انتظرْ قليلاً.

نعمْ، هذه اللحظاتُ التي يشعرُ فيها المحققُ باقترابِ نصرِه، فعندما يطلبُه السجينُ هذا يعني أنّ الاعترافَ اقتربَ.

دقائقُ قليلةٌ حتى فتحَ البابَ صبري.

_ المحقق صبري: أهلاً وسهلاً سيدُ أحمدُ، لقد سمعتُ أنّك طلبتَني، إن شاءَ اللهُ فكرتَ جيداً.

_أحمدُ: نعم، لقد فكرتُ جيداً، ويبدو أنّ الكذبَ لا ينفعُ.

_المحققُ صبري: نعم، هذا الكلامُ الصحيحُ، أنتَ هكذا تريدُ أنْ تساعدَ نفسَكَ.

_أحمدُ: نعمْ، لقد فكرتُ وأريدُ أن اعترفَ لكن....

_المحققُ صبري: لكن ماذا!

_أحمدُ: لا أُريدُ لأحدٍ أن يعرفَ أنني اعترفتُ.

_المحققُ صبري: لا تقلقْ من هذهِ الناحيةِ.

_أحمدُ: لا، إنني أريدُ أن تقسمَ لي.

_المحققُ صبري: حسناً سيدُ أحمدُ أقسمُ لكَ لن يعلمَ أحدٌ أنّك اعترفتَ عليه.

_أحمدُ: كابتنُ صبري، أنا أصبحَ لي أكثرُ من عشرةِ أيامٍ لمْ أتناولْ طعاماً،

_المحققُ صبري: آسفٌ، اعذرني نسيتُ أن أسألَك ماذا تريدُ أن تأكلَ؟

_أحمدُ: منذُ أن اعتقلتموني وأنا أتمنى أن أتناولَ مشاويَ ساخنةً.

_المحققُ صبري: فقطْ هذا ما تريدُ! الآنَ أشهى طبقِ مشاوٍ، اذهبْ واسترحْ؛ حتى يحضرَ الشبابُ الطعامَ.

عدتُ إلى زنزانتي؛ لأضعَ رأسي وأغرقَ في النومِ، وأنا أحلمُ بطعمِ المشاوي اللذيذةِ، ساعةً تقريباً؛ لأجدَ نفسي داخلَ مكتبٍ ضخمٍ مليءٍ بالأثاثِ الفاخرِ، ليدخلَ على الكابتنِ صبري ومعه الطعامَ، رائحةُ المشاوي كانت شهيةً، حتى الكابتنُ صبري ذاتُه لم يحتملْ، وتناولَ بعضَ الطعامِ معي، ثم طلبتُ أن أشربَ عصيرَ ليمونٍ، والكابتنُ صبري يترقبُ.

_المحققُ صبري: أأنهيتَ طعامكَ سيدُ أحمدُ؟

_أحمدُ: نعم، الحمدُ لله.

_المحققُ صبري: جيدٌ، الآنَ سوفَ نبدأُ في الأمورِ الجديةِ.

خرجَ صبري ليعودَ معه ثلاثةٌ من الضباطِ، وبدأَ يعرفُ بهم: " الجنرالُ (س): مسؤولُ مركزِ التحقيقِ، (ص): مسؤولُ الشاباكِ، (ع): نائبٌ للواءِ الجنوبِ.

وأنا كنتُ أقولُ: " أهلاً وسهلاً " لكلِّ شخصٍ، وبدأَ كابتنُ صبري يتكلمُ وكلُّه أملٌ أمامَ الضباطِ.

_المحققُ صبري: تفضلْ سيدُ أحمدُ، تكلّمْ كيفَ أدخلتَ السلاحَ، ولِمَن سلّمْتَهُ.

_أحمدُ: ماذا تقولُ؟، أيُّ سلاحٍ يا رجلُ!

_المحققُ صبري: أحمدُ، ماذا تقولُ؟!، أنتَ قلتَ سوفَ تعترفُ.

_أحمدُ: نعمْ، صحيحٌ، أنا قلتُ سوفَ أعترفُ بالحقيقةِ، والحقيقةُ أنّي لمْ أعملْ شيئاً.

لقد عبستْ وجوهُ الضباطِ، وفتحوا البابَ، وخرجوا؛ لينقضَّ عليَّ صبري مثل المسعورِ.

_المحققُ صبري: تريدُ أن تحرجَني أمامَ قادتي، وتجعلَني مثلَ الأخرقِ، أكلتَ المشاويَ، وضحكتَ عليَّ، واللهِ لأجعلنَّ من حياتِك جحيماً، تذكرْ

كلامي هذا، وأنا وأنتَ والزمنُ طويلُ، سأجعلُك تتمنى أن تشاهدَ أطفالَك، سأعملُ جاهداً؛ لكي أدمرَ حياتكَ.

_أحمدُ: نعمْ، إنّه الوقتُ المناسبُ للصراخِ، لقد بدأتُ الصراخَ: تريدُ قتلي، تهددُني بأسرتي، أنا مظلومٌ، أنا بريءٌ، لم أفعلْ شيئاً.

أنهى المحققُ صبري حديثَه، وخرجَ من المكتبِ ووجهُه محمرٌّ، حتى عدتُ إلى زنزانتي، نعمْ، لقدْ انتصرْتُ انتصاراً ساحقاً في هذهِ الجولةِ، لكنّي أيقظتُهم بمدى ذكائي، الآنَ يجبُ أنْ أكونَ أكثرَ حذراً؛ لأني سأواجهُ أساليبَ متطورةً في الجولةِ القادمةِ، وكما توقعتُ لم أبقَ في زنزانتي سوى ثماني وأربعون ساعةً حتى تمَّ أخذي بالجيباتِ العسكريةِ، أو كما تُسمّى: (بوسطه)، نعم، إنّه النقلُ، لكنْ أين؟ لا أعلمُ، أرجو من اللهِ أنْ يمدَّني بالقوةِ والإيمانِ؛ حتى أستعدَّ للجولةِ القادمةِ.

كيفَ يعملُ المحققون على إخراجِ المعلوماتِ من المعتقلِ، بحسبِ نظريةِ التحليلِ النفسيّ ثمةَ منطقةٍ واسعةٍ في العقلِ تحتَ مستوى الشعورِ تكمنُ فيها الذكرياتُ الأليمةُ والرغباتُ التي لم تتحققْ عن طريقِ العقلِ الشعوريّ. وهدفُ التحليلُ إخراجُ محتوياتِ اللاشعورِ إلى حيزِ الشعورِ، وذلكَ من خلالِ الخبراتِ اليوميةِ في الأحلامِ، وأحلامِ اليقظةِ، واسترجاعِ الذكرياتِ، وفلتاتِ اللسانِ.

يعملُ المحققونَ على إجهادِ المعتقلِ، وعدمِ إراحتِه لعدةِ أيامٍ دونَ نومٍ، أو طعامٍ مناسبٍ؛ حتى تتكسرَ كلُّ دفاعاتِ المعتقلِ، ولا يستطيع التفكيرَ فيصبحَ بين اليقظةِ والنومِ وهذهِ ما يُسمى: (أحلامُ اليقظةِ)، فيبدأُ بفلتانِ اللسانِ، ثم يضعفُ تدريجياً نحوَ الاعتراف.

لذلكَ على المعتقلِ أن يستغلَّ كلَّ ثانيةٍ متاحةٍ له في التحقيقِ للاستراحةِ حتى لو خلالَ التحقيقِ، لستَ ملزماً بالإجابةِ على أحدٍ، أو النظرِ في عيونِ أحدٍ، فقط أغمضْ عيونَك، واسترحْ، كلّما أتحدثُ عنهُ سلاحُه الوحيدُ الصبرُ، والهدوءُ.

في ذلكَ الوقتِ تمَّ نقلي إلى أحدِ السجونِ التي لا أعرفُ اسمَها، حتى وجدتُ داخلَها أسوأَ أنواعِ التحقيقِ، فلمْ أجدْ زنزانةً مريحةً، فقدْ كنتُ أنامُ معظمَ وقتي داخلَ خزانةٍ حديديةٍ، وأنا واقف؛ لأستيقظَ دائماً على دلوِ ماءٍ باردٍ، لقد كانَ أشدَّ أنواعِ التحقيقِ، جلستُ وقتَها على جهازِ كشفِ الكذبِ، وخرجتُ منهُ، وأنا أضحكُ على غبائِهم، بعضُ أجهزةِ القلبِ، و الضغطِ، والتنفسِ، والتعرقِ سوفَ تحددُ مدى صدقي، يا لهم مِن أغبياء! إنّ إيماني الكبيرَ بقضيتي وحبي الكبيرَ لرفاقي جعلَني أصلبَ من الصخرِ، نعمْ، قد يؤلمُني القيدُ، وتأكلُ منّي السنينُ، قدْ

تصفعُ أُمي، وتكثرُ فيَّ الشجونِ، قدْ تحكمُني سنتانِ، أو تسعُ وتسعونَ، ولكنَّ سنبلةَ قمحٍ لن تخونَ، لن أركعَ، ولن أخضعَ، ولن أخونَ، وسأبقى أُقاتلُ حتى الطلقةِ الواحدةِ والثلاثين، فإمّا أكونُ، وإمّا لا أكونُ.

فبعدَ سبعةٍ وتسعين يوماً من التحقيقٍ دونَ أيّ اعترافٍ خرجَ أَحمد منتصراً، ليبدأَ مشوارَ الاعتقالِ، ويمضيَ عامانِ في سجونِ الاحتلالِ، كانَ الشاباكُ في كلِّ جلسةٍ من جلساتِ المحكمةِ يقولُ: إنّ ملفَّه سريٌّ حتى آخرِ جلسةٍ والتي طلب أحمدُ شخصياً التكلمَ بدلَ المحامي الخاصّ به.

_ أحمدُ: حضرةَ القاضي، أودُّ أن أوجهَ لك سؤالاً، كم عددُ الجلساتِ التي عُقدت لي؟ نعمْ، دونَ أن تجيبَني، سوفَ أجيبُك: لقد عُرضتُ على المحكمةِ خمساً وعشرين مرةً، وهذا إنْ دلَّ على شيءٍ، يدلُّ على أنّكم تريدونَ أن تحكموا بالعدلِ، وأنا متأكدٌ من أنكم لا تريدون إلا العدلَ، وأنا رجلٌ متزوجٌ، ولديَّ طفلانِ ينتظراني، وأتمنى أن تكونَ هذهِ آخرَ محكمةٍ لي، كانت هذهِ آخرَ كلماتٍ نطقتُ بها في المحكمةِ ليكونَ حكمُ القاضي بالأفراجِ عن المتهمِ أحمدَ بقناعةِ القاضي الشخصيةِ.

اسرائيل تتهم مواطناً من بيت لحم بصفقة السلاح التي القي القبض عليها في البحر الميت

من: حمدي فراج

ردت المحكمة العليا الاسرائيلية التماس بوقف التعذيب ضد المعتقل احمد البلبول من بيت لحم المتهم في صفقة السلاح التي القي القبض عليها عرض البحر في الرابع والعشرين من شباط الماضي حيث تتهمه السلطات الاسرائيلية بالاتجار بالسلاح لصالح حركة الجهاد الاسلامي.

وقالت محامية المتهم اليغرا باتشيكو ان موكلها يتعرض لتعذيب شديد جداً بأساليب مختلفة الامر الذي ادى الى تدهور وضعه الصحي ونقله الى المستشفى.

محامية المعتقل أحمد البلبول قلقة على مصيره

بيت لحم - نابلس - لمراسلي «الفجر» - أبدت المحامية اليغرا باتشكو التي تتولى الدفاع عن المعتقل أحمد البلبول (٣٧ عاما) من بيت لحم قلقها البالغ على مصيره، خاصة انها ممنوعة من زيارته منذ اعتقاله في السادس والعشرين من شهر شباط الماضي.

وأوضحت باتشكو انها قدمت التماسا للمحكمة العليا طالبت فيه بالسماح لها بزيارة موكلها المعتقل في سجن المسكوبية.

وردت المحكمة الالتماس وقررت ان يبقى المنع حتى اليوم «الاربعاء»، وذلك استجابة لطلب «الشاباك».

وأشارت باتشكو الى ان الادعاء العام الاسرائيلي استغل قرار المحكمة وعقد جلسة تمديد للمعتقل وقرر تمديد اعتقاله حتى الثاني من الشهر القادم.

وعلى اثر هذه الجلسة قدمت المحامية شكوى للشرطة الاسرائيلية ضد الادعاء العام.

وتقول باتشكو ان المعتقل البلبول خضع لتحقيق قاس.

اتهام «الشاباك» بتقديم معلومات كاذبة للمحكمة

العليا الاسرائيلية ترفض التماس المعتقل احمد بلبول لوقف تعذيبه

● رفضت المحكمة العليا الاسرائيلية مساء امس التماسا تقدم به المعتقل احمد بلبول قائلا فيه بأنه تعرض خلال تحقيقات اجراها جهاز «الشاباك» الاسرائيلي للضرب والهز.

واكدت قضاة المحكمة في حيثيات [illegible] الى اي اساس حرصة وان تقرير طبيا قدمه اليهم جهاز الشاباك يشير الى عدم وجود اي علامات عنف على جسمه.

الى ذلك اكدت اللجنة العامة ضد التعذيب في التماس قدمته امس الاول الى المحكمة العليا ان المخابرات العامة (الشاباك) ومن خلال ادعاء عام الدولة قدمت ابان مداولات في التماس سابق بيانا كاذبا كي تخفي عن القضاة قيام رجال الشاباك بتعذيب المعتقل احمد بلبول.

وطالبت اللجنة المحكمة العليا بتوجيه تعليمات الى المستشار القضائي للحكومة للتحقيق في تصرفات الادعاء العام و «الشاباك» كما طالبت ايضا بتوقف (الشاباك) عن تعذيب المعتقل.

واعتقلت شرطة سير احمد بلول صاحب «لونا بارك» في بيت لحم قبل اكثر من شهر في شارع البحر الميت، وسلمته الى المخابرات العامة، التي حققت معه حول علاقاته التجارية مع حركة الجهاد الاسلامي، وحظرت «الشاباك» على محاميه عقد لقاء معه [illegible] ٢٨ يوما منذ اعتقاله.

اخفاء التعذيب

وتوجهت الغرفة باتشكو لمحامية «اللجنة العامة ضد التعذيب في مدعي عام الدولة واعربت عن تخوفها من ان يكون الهدف من حظر عقد لقاء مع المعتقل، هو اخفاء تعذيبه. وبعد المحامي [illegible] ان ممثل الادعاء العام «اللجنة [illegible] ضغوط جسدية عليه اعدم تعرض المعتقل لضغوط جسدية».

وقدمت باتشكو التماسا للمحكمة العليا بعد تمديد فترة حظر لقاء المعتقل لمحاميه. وكرر ممثل الادعاء العام القول بانه لا يتم ممارسة ضغوط جسدية ضد بلبول خلال التحقيق معه. وكرر المحامي نفسان هذه الادعاءات خلال المداولات حول الالتماس.

نقله الى مستشفى هداسا

وبناء على اقواله وبدون اجراء تحقيق جديد رفض الالتماس. وبعد مرور اربعة ايام على رفض الالتماس سمح للمحامية بعقد لقاء مع بلبول اكد فيه انه وطوال فترة التحقيق معه كان يتعرض للتعذيب. وبسبب الضغوط التي مورس ضده، نقل الى مستشفى هداسا لتلقي العلاج، وكانت يداه مكبلتين بالاصفاد طوال فترة تلقيه العلاج في المستشفى.

وجاء في الالتماس ايضا ان تعذيبه تضاعف في اعقاب رفض الالتماس الاول، واستمر ثلاثة ايام اخرى.

المجلس الثقافي البريطاني يتبرع بمجموعة كتب لجامعة بيت لحم

بيت لحم - لمراسل [illegible] الخاص - تبرع المجلس الثقافي البريطاني في الخليل لمعهد ادارة الفنادق والسياحة في جامعة بيت لحم بمجموعة من الكتب الحديثة والتي تناولت موضوعات مختلفة في مجال السياحة وادارة الفنادق.

ومن الجدير ذكره ان المجلس الثقافي ارسل عددا من اساتذة معهد ادارة الفنادق والسياحة في بعثة الى جامعة شفيلد هالام حيث جرت توأمة بين هذه الجامعة وجامعة بيت لحم.

من جهة اخرى، التقى نائب الرئيس الاعلى للجامعة فنسنت [illegible] الجامعة التاسع الذي جرت العادة ان تقيمه سنويا كلية ادارة الاعمال على مهارات البيع والشراء، وما يتعلق بهما من امور مالية. ويقوم طلبة السنتين الثالثة والرابعة بتوجيهات من اساتذتهم [illegible] من بدايته حتى نهايته.

محامية المعتقل احمد البلبول قلقة على حياته

بيت لحم - لمراسل القدس الخاص - اكدت المحامية اليغرا باتشكو التي تتولى الدفاع عن المعتقل احمد البلبول من سكان مدينة بيت لحم، انه ومنذ اعتقاله لا زال يتعرض لتحقيق وتعذيب شديدين، وبأساليب مختلفة منها هز الرأس والشبح المتواصل وعصب العينين، وتوثيق اليدين، بالاضافة الى عدم السماح له بالمدة الكافية للنوم، الامر الذي ادى الى تردي وضعه الصحي، ونقصان في الوزن حيث نقل الى مستشفى هداسا الاسرائيلي.

جاءت اقوال باتشكو في معرض تعقيبها على قرار المحكمة العليا الاسرائيلية في جلستها التي عقدت امس الاول للنظر في الالتماس المقدم من قبلها لوقف تعذيب موكلها حيث اعتمدت هيئة المحكمة اقوال المدعي العام الذي ادعى بأن المعتقل البلبول لم يتعرض للتعذيب، حيث ردت المحكمة الالتماس المذكور.

المحامية قلقه عليه

واعربت باتشكو في حديث خاص عن قلقها على حياة البلبول.

ولم تسمح السلطات الاسرائيلية للمحاميه المذكورة من زيارة موكلها الا بعد مرور نحو الشهر على اعتقاله في ظروف غاية من السرية.

استكمال توزيع ال... على اللجنة الت... لاتحاد المرأة

طولكرم - لـ...

امس استكمال ... اللجنه الت... الحافله

الخصائصُ النفسيةُ لرجلِ الأمنِ:

1. المرونةُ: وهي العنصرُ الأهمُّ وتقسمُ إلى:
   - المرونةُ السلوكيةُ
   - المرونةُ الفكريةُ
2. السِّريّة: هي الخاصيةُ غيرُ الطبيعيةِ في الإنسانِ، فالإنسانُ الطبيعيُّ هو الذي يقومُ بفضفضةِ مشاعرِه وأفكارِه للآخرينَ ويتفاعلُ معهم، ولكنَّ رجلَ الأمنِ هو منْ يعملُ على كبتِ مشاعرِه وأفكارِه وحفظِ المعلومةِ، وعدمِ الثرثرةِ والتباهي.
3. الاستراتيجيةُ العقليةُ: يعملُ رجلُ الأمنِ على رسمِ خطواتِه خطوةً خطوةً، بحيث ُيقومُ بالعملِ بانضباطٍ والتزامٍ عالٍ جداً، وخاصةً في حياتِه اليوميةِ، ويقومُ برسمِ الخطةِ وتحضيرِها بشكلٍ دقيقٍ جداً.
4. الشكُّ: يتميزُ المطلوبُ بدرجةٍ عاليةٍ من الشكِّ، بحيثُ يملأُ الشكُّ حياتَه في كلِّ عملٍ يقومُ بهِ، فيعملُ على التأكدِ مرةً، أو مرتيْن، أو ثلاثَ مراتٍ؛ وذلكَ نتيجةَ حالةِ القلقِ التي يعانيها من خوفِ الانكشافِ، والخوفِ من التعرضِ للقتلِ، أو الأسرِ، وشعارهُ دائماً: (الثقةُ لا تمنعُ الحذرَ).

5. الاتزانُ الانفعاليُّ: فرجلُ الأمنِ إذا لم يستطعِ السيطرةَ على انفعالاتِه لا يصـــلحُ أن يكونَ رجلَ أمنٍ؛ لأنَّ الثباتَ الانفعاليَّ، والقدرةَ على السيطرةِ على الانفعالاتِ تمنحُ رجلَ الأمنِ القدرةَ على التفكيرِ الذكيِّ وعدم التهورِ، أيظنُ أن القدرةَ تمنحُ على عدمِ الســقوطِ في شــباكِ مشاعرِه ونزواتِه التي هي أكبرُ عدوٍّ لرجلِ الامنِ؟!
6. المهارةُ في التمثيلِ: (التعددُ في ارتداءِ الأقنعةِ)، هذا عملُ رجلِ الأمنِ ومحورُه المطلوبُ، فهو الممثلُ البارعُ الذي يســتطيعُ لبسَ القناعِ الذي يريدُ، وقتَ ما يرديدُ، وأينَ ما يريدُ.
7. الثقةُ العاليةُ في النفسِ: (تقديرُ عالٍ لشخصِه)؛ حيثُ يكونُ له انتماءٌ عالٍ لوطنِه وبلادِه، وهو بذلكَ يأمن نفسَــه من الوقوعِ في أيّ محاولةٍ لغســـلِ الدماغ، أو الوقوعِ تحتَ تأثيرِ البيئةِ أو الجماعةِ المحيطةِ، ويستمرُّ في عملِه لسنواتٍ طويلةٍ، وكلُّه ثقةٌ بأنّ ما يقومُ به هو العملُ الصحيح.
8. الاســتبصــارُ: القدرةُ العاليةُ على اســتبصــارِ الواقعِ الذي يعيشُ فيه بســـلبياتِه وإيجابياتِه، واختيارِ الأســـلوبِ المناســـبِ؛ لتنفيذِ المهمةِ المطلوبةِ سـواءٌ أكانت اختفاءً، أو مراقبةً، أو اقتناصَ المعلومةِ، وفي النهاية إنّ أفضلَ تعريفٍ لرجلِ الأمنِ (المطارد): الاخصائيُّ النفسيُّ

ذو الثقةُ العاليةُ، والمحترفُ القادرُ على التكيفِ والتأقلمِ في الوســـطِ البيئيِّ الذي يريدُ العيشَ فيه، أو تنفيذَ المهمةِ به.

فوضی

حياةٌ هادئةٌ، وعائلةٌ سعيدةٌ رغبةُ كلِّ إنسانٍ طبيعيٍّ وحلمه، أما أنا كنتُ الإنســـانَ الآخرَ المميزَ بحياتيْن: حياةٍ تتمثلُ بالاســـتقرارِ، وحياةِ الفوضـــى والحربِ، والفاصـــلُ الوحيدُ بينهم اســـمي،لم أكنْ معروفاً في بدايةِ الانتفاضةِ الثانيةِ كالانتفاضةِ الأولى، فقد كنتُ معروفاً بأني إنسانٌ أمتلكُ مشـــاريعَ عملٍ، وحياةً منفتحةً مليئةً برحلاتٍ وضـــحكٍ، فلم يكنْ جانبَ الغضـــبِ والعنفوانِ يظهرُ عليّ إلا أمامَ رفاقي، فقد كنتُ أكتمُ كلَّ مشـــاعري وما أن أجلسَ مع رفاقي،حتى أبدأَ بتفريغِ ما في داخلي من غضبٍ على هذا المحتلِّ المغتصبِ لأبناءِ شعبي وأرضِه، فالبدايةُ دائماً تأتي من الأصلِ فمن دخل طريقَ النضالِ والمقاومةِ، لأجلِ الشهرةِ فلا نفعَ منه، ومَن دخلَها من أجلِ أن يزيدَ ثقتَه بنفسِـــه فلا نفعَ منه، ومَن دخلَها لأجلِ المالِ فإلى مزابلِ التاريخِ.

فالأصـــلُ دائماً يأتي من البيئةِ التي تربيْتُ فيها، فمن ترعرعَ داخلَ أســـرةٍ وطنية، أو محافظةٍ دينياً، فأولئكَ أصـــحابُ البذرةِ النظيفةِ التي سوفَ تنبتُ رجالاً ونساءً لا يعرفونَ الضيمَ ولا يعرفون الهوانَ، لقد ولدتُ في عائلةٍ كان (عمي أحمدُ ســـالم البلبول) قائداً في حركةِ الجهادِ المقدسِ تحتَ قيادة (إبراهيمَ أبو دية) الذي أمضـــى حياتَه وهو يحاربُ الاستعمارَ البريطانيَّ حتى أُستشهدَ في معركةِ (بيتَ نتيف)، أذكرُ في

صـــغري كانتْ صـــورُ عمي أحمدَ تملأُ المنزلَ، وكان والدي دائماً يقولُ لي: " لقدْ ســـميتُكَ باســـمِ عمّك أحمدَ؛ لتصـــبحَ مثلَه بطلاً من أبطالِ فلسطينَ "، نعمْ، لقد وضـعَ والدي في داخلي التربةَ الخصـبةَ؛ ليزرعَ في المستقبلِ بذرةَ الصـمودِ والتضـحيةِ، فعندما كبرتُ كنتُ أنظرُ إلى صـورةِ عمي، وأقولُ في داخلي: " واللهِ يا عمّاهُ لأَقتُلَنَّ مَن قتلَك، ولأسـيرَنَّ على خطاكَ "، كنتُ أجدُ في المقاومةِ طهارتي، وســـبيلي الوحيدَ لصـــناعةِ الحياةِ في عالمٍ مليءٍ بالفوضى.

عندَ خروجي من السـجنِ اسـتقبلَتْني عائلتي و أصـدقائي، ولمْ يســـتقبلْني أحدٌ من رفاقِ المقاومةِ، لمْ أحزنْ؛ لأنّي كنتُ أعلمُ أنَّ هذا العملَ لمصـلحتي؛ و لأنَّ الشـاباكَ أخرجَني، وهوَ يعلمُ بأنّي لسـتُ بريئاً، لقد مضت ثلاثةُ شهورٍ، ولمْ أُشاهدْ، و لمْ ألتقِ أحداً من رفاقي حتى ذلكَ اليوم، كنتُ جالساً في المنزلِ، وإذا بطفلٍ يدقُّ بابَ المنزلِ، فتحتُ البابَ فقامَ بإعطائي كيســـاً بلاســـتيكيّاً مليئاً بالفواكهِ، وقالَ: " هذهِ من رفيقِك فارس "، لقد كانَ هذا رمزَ أحدِ الرفاقِ، عندما أدخلتُ الفواكهَ إلى المنزلِ أوّلُ خطوةٍ قمتُ بها إغلاقُ كافةِ الأبوابِ والنوافذِ، ثم بدأتُ أتفقدُ الفواكهَ لأجدَ فتيلةً صـــغيرةً داخلَ أحدِ حباتِ التفاحِ عندما فتحتُها وجدتُ في

داخلِها تاريخَ اللقاءِ ومكانِه و زمانِه، نعم، لقد بدأتُ من جديدٍ، لكن بدأتُ الآنَ أفكرُ في كلِّ ما عانيتُه في السجنِ، والتحقيقِ: "هل هذهِ الحياةُ التي أُريدُ، أو أنها لا تناسبُني؟ "، " لماذا لا أعيشُ مثلَ باقي أفرادَ الشعبِ؟"، " لماذا أحملُ أحزانَ الاسرى والشهداءِ دائماً؟ "، " هل أنا لوحدي أحملُ همومَ القدسِ وفلسطينَ؟ "، كلُّ هذهِ الأسئلةِ والوساوسِ كانت تملأُ عقلي، يا إخوتي أكذبُ عليكم إذا ما قلتُ إنّي لم أفكرْ بهذه الأفكارِ، لكن في النهايةِ كنتُ أتعمقُ في داخلي؛ لأجدَ الجوابَ صرخاتِ الأسرى الذين هم خلفَ القضبانِ، أفكارُ الشهداءِ الذين ضحوا بدمائهم، آهاتُ المسجدِ الاقصى، كانت كافيةً لتشحنَني بالطاقةِ؛ لأكملَ مسيرتي طالباً الشهادةَ في سبيلِ اللهِ في كلِّ خطوةٍ أخطوها.

الساعةُ التاسعةُ والنصفُ مساءً، المكانُ في أحدِ القرى المجاورة لمدينةَ بيتَ لحمَ، إنه اللقاءُ الأولُ بعدَ غيابِ سنتيْن، لقد كانَ مليئاً بالشوقِ والأحضانِ، نعم، عندما رأيتُ كافةَ رفاقي تأكدتُ بأنّ الوضعَ بخيرٍ، بدأتُ بالمزاحِ والضحكِ مع الجميعِ، وكنتُ أخبرُهم بما فعلتُ مع الكابتن صبري، فجنَّ جنونُهم من الضحكِ، كان ذلك الوقتُ من أجملِ الأوقاتِ، فرفاقي بخيرٍ، وأنا بخيرٍ، الحمدُ للهِ يا رب.

في ذلكَ اللقاءِ لم يتحدثْ أحدٌ بأيّ شـيءٍ يخصُّ العملَ، لقد كانَ هذا اللقاءُ لقاءَ الأحبةِ، انتهى اللقاءُ، تم تسليمُ الهواتفِ التي كانت في الغرفةِ المجاورةِ، وتحديدُ موعدٍ جديدٍ للقاءِ، لقد كانَ هذا الأجراءُ من طلبي أنا فقط؛ لأني لم أكنْ أريدُ أن اكتشـــفَ، لقدْ كانَ في ذلك الوقتِ يتعاملُ رفاقي بشـكلٍ مكشـوفٍ، أمّا أنا فقط كنتُ أفضّـلُ ألّا أُعرفَ، وقد احترمَ كافةُ رفاقي رغبتي.

لقد كانَ أهمّ ســـؤالٍ ســـألني إياهُ محمدٌ في نهايةِ اللقاءِ: " هل تريدُ أن تستمرَّ في العملِ؟".

إنّ التجربةَ التي خضتُها لم تكنْ سهلةً ليكونَ جوابي وبكلِّ تأكيدٍ: " نعمْ، وألفُ نعم، أخي محمدٌ، لقد بدأتُ من جديدٍ".

لقد بدأتُ حياتي من جديدٍ، لا للخوفِ و لا للتّراجعِ، أنا أختلفُ عن الجميعِ، أن تعملَ الشـيءَ أمرٌ سهلٌ، لكنْ أن تستمرَّ في العملِ هو الأصعبُ، يجب أن تكونَ لي خطة أعملُ بها، كيفَ، ومن أينَ أبدأ؟.

الكتبُ بدايةُ الطريقِ للأفقِ الأوســـعِ، بدأتُ القراءةَ، كتاباً يتلوهُ كتابٌ، حتى جمعتُ أفكاري؛ لأرسمَ خطّتي....

الأيامُ تمضـــي، والوقتُ عدوّي الآنَ، نعمْ، أشــعرُ بأنّ في داخلي الكثيرَ من الطاقةِ، أشـــعرُ بأنّي أختلفُ، واليومَ يكونُ موعدُ اللقاءِ، فمِن أينَ أبدأُ؟.

بدأتِ الانتفاضـةُ تشتدُّ، ومع بدءِ العملياتِ في مدنِ الداخلِ المحتلِّ حيثُ كانَ للقدسِ النصـــيبُ الأكبرُ في ذلك الوقتِ، لم نكنْ نرجع من العمليةِ حتى نجدَ أحدَ التنظيماتِ قدَ تبنّتها، لم نكنْ نهتمُّ، فقد كان ذلكَ لصــالحِنا؛ حتى لا نتعرضَ للكشــفِ، لكن الذي كان يســاعدُنا في ذلك الوقتِ: أنّ مناطقَ الضــفةِ لم يكنْ دخولُ الاحتلالِ إليها ســهلاً، وأيضــاً كان شــبابُ التنظيماتِ الأخرى، ومجموعاتُهم المســلحةُ تنشــطُ في أزقةِ المدنِ وشوارِعها ومخيماتِها التي ساعدتْنا بتسهيلِ حركتِنا الأَمنيةِ.

فكلما أوغلَ الاحتلالُ بقتلِ الأطفالِ، كانت تزدادُ قناعتي بضـــرورةِ الاستمرارِ، وأنّ كلَّ طفلٍ من أطفالِ فلسطينَ لا أبدلُه بكلِّ كيانِ إسرائيلَ، واليدُ الّتي تمسُّه كانت الشرارةَ الّتي تجعلُني أسهرُ الليلَ؛ لأصنعَ مغلفَ الغدِ.

فالمحتلُ قذرٌ، إذا شعرَ بأنّك ضعيفٌ زادَ من قذارتِه؛ لذلكَ عليكَ أن تقطعَ يدَه قبلَ أن تطالَك، ومن يقبلْ بالإهانةِ لشـــعبِه، ســـيقبلْها على عائلتِه، فمعركتُنا معهم معركةُ كرامةٍ، معركةُ شرفٍ، هم يريدونَ أن نكونَ

لهم عبيداً؛ لنبنيَ دولتَهم، وننظفَ قذاراتِهم برؤوسِـنا، أمّا نحن، فنريدُ أن نحفرَ لهم حفرةً كبيرةً.

نعم، اشتدتِ الأوضاعُ وكانتِ الانتفاضةُ في أوجِها، وكانتِ الفصائلُ المسلحةُ تستعرضُ كلَّ يومٍ قوتَها، وكانَ عشراتُ الشبابِ يخرجونَ يومياً ليسـتعرضـوا أسـلحتَهم وقوتَهم صـباحاً، أمّا ليلاً: تصـبحُ الأجواءُ مثلَ الاحتفالاتِ، فسـماءُ بيتَ لحمَ تتلألأُ بأضـواءِ الرصـاصِ، وهو يتطايرُ بـاتجـاهِ "أبو غنيم"، و"جيلو"، (مســتعمرات غلافِ بيـتَ لحمَ)، كنـتُ أصـطحبُ أبنائي أحياناً في نزهةٍ ليليةٍ؛ ليشـاهدوا بريقَ الرصـاصِ وهو ينصـبُّ على المسـتعمراتِ، وعندما نرجعُ إلى المنزلِ كانوا يتكلمونَ عن المشهدِ ألفَ مرةٍ.

في ذلكَ الوقتِ كنتُ أمتلكُ قطعةَ أرضٍ في إحدى القرى المجاورةِ لمدينـةِ بيتَ لحمَ، كـانـتِ الملاجئُ التي أهربُ إليهـا من عثراتِ الدنيـا، كُنتُ أتحدثُ إليها، فأجد كثيراً من أجوبتي مسـتلقياً على تربتِها وشـعرِها المخضـرِّ الّذي كانَ يلامسُـني، وفي نهايةِ النهارِ كنتُ أسـتجمعُ قواي؛ لأعودَ إلى المنزلِ؛ لأحتضنَ روحي المعلقةَ بينَ كنيسةِ ميلادِ المسيحِ، و تلكَ الأزقةَ لحاراتِها السبعِ.

مضتِ الأيامُ سريعاً، وكنتُ أخشى من ذلكَ اليومِ حتى جاء...

عدتُ في (19-10-2001) إلى المنزلِ فجراً، فاستلقيْتُ، وما أن غفتْ عيناي، حتى استيقظتُ على تلكَ العيونِ البريئةِ التي تنظرُ إليَّ، وهي مليئةٌ بالدهشةِ والخوفِ، كانتْ تبدو وكأنّها تتقصّاني منذُ زمنٍ حتى وجدتْني، تماسكتُ نفسي، وانعقدَ لساني قليلاً، وما هي إلا ثوانٍ، حتى صرخْتُ: "ماذا تفعلونَ هنا"؟!

"ألمْ أُرسلْكم إلى بيتِ جدّكم"؟!

الدهشةُ في عيونِهم لم تنتهِ، لقد شاهدَ أبنائي بندقيةً إلى جانبي، وكانت رائحةُ المنزلِ تفوحُ منها البارودُ، بالرغمِ من كلِّ الاعذارِ التي اختلقتُها، أصبحْتُ في عقولِهم من رجلِ أعمالٍ إلى مقاومٍ.

بدأتُ أشعرُ وكأنَّ حياتي أصبحتْ تحتَ المجهرِ والمراقبةِ من أبنائي، وأصبحتِ الأسئلةُ كثيرةً، "أين ذاهبٌ؟، ولماذا؟، وخذْنا معك"، كلُّ هذهِ الأسئلةِ والمطالبِ أصبحتْ تعيقُ حركتي، وشعرتُ أنَّ موضوعَ السِّريّة لم يعدْ ينفعُ، وخاصةً عندما أصبحَ الكثيرُ من أصدقائي يشكّون فيَّ؛ لأنَّ السِّريّة لدي أصبحتْ تضعفُ شيئاً فشيئاً.

وفي ذلكَ الوقتِ كانتِ المعاركُ في أشدِّها، عملياتٌ واشتباكاتٌ ومحاولاتُ اقتحامٍ ليليّ، حتى جاءَ رفيقي "محمدٌ" إلى منزلي؛ ليخبرَني بأنّه بحاجةٍ إلى مكانٍ؛ لإخفاءِ أحدِ الأشخاصِ في حوشِ عائلتي؛ لأنّه

معرضٌ للاغتيالِ في أيّ لحظةٍ، فطلبتُ منهُ بعضَ الوقتِ؛ ليتسـنّى لي تجهيز المكانِ، فوجدتُه في صباحِ اليومِ التالي قد أحضرَ ذاكَ الشّخصَ معهُ!

لقدْ أَمْضـــى أَكثرَ مِن ثلاثةِ أســـابيعٍ، وَهوَ يَعيشُ في أَحَدِ الغُرَفِ داخِلَ "حوش العائِلَة"، لَمْ اسْتَطِعْ نِسيانَ تِلكَ اللحظَةِ الّتي كنَّا نُشاهِدُ فيها التِّلفازَ في مَنزلي، والأخبارَ تَتَصَدَّرُ خَبَرَ هَدْمِ مَنْزِلِهِ في مُخيَّم الدهيشة؛ ليَغْرُزَ كلماتِهِ في قَلبي، وَأُمُّهُ تَصـــرُخُ فَوقَ الحُطام: "لا يا أمّاه اصـــبري اصبري".

تَواجُدُ المُغربي في "الحوش" جَعَلَ الشَّـبابَ يَسـهرونَ طوالَ اللّيل، وفي النَّهارِ ينـامونَ في نفسِ الغُرفَـةِ عنـدَ المُغربي، لَمْ يَعُدْ هُنـاكَ داعٍ لإنكارِ مَنْ أنا، وماذا أعمل؛ لكنّي في نَفْسِ الوقت مازِلتُ مُتَمَسِّكاً بشعرةِ معاويةِ، فَكُنْتُ أُصرُّ دائماً على الإنكارِ.

تَقَدَّمَتْ آلياتُ الاحتلالِ هذهِ المرَّة لِتَصِلَ إلى أقرَبِ نُقطةٍ مِنَ المَدينَةِ، فأصبحتْ تُحاصِرُ مدينةَ بيتَ لحمَ، هُنا بَدأ الجَميعُ يَسْتَشْعِرُ الخَطَرَ، بَدأَ الشَّـبابُ بِتَكْثيفِ سَـهَرِهِم؛ لمراقبةِ الأوْضـاعِ ليلاً، أَظنُّ أنّني هُنا بدأتُ اسْتَشْعِرُ خَطَأَنا؛ لأنّنا عَمِلنا على نَقْلِ المَعْرَكَةِ إلى قَلبِ مُدُنِ العدوّ، وَلَمْ

نُحَصِّـــنْ أَنْفُسَـــنـا "والّـذي بيْتَـهُ مِنْ زُجـاج لا يَرمي بُيوتَ الآخرينَ بالحِجارَةَ"...

كانتْ دفاعاتُ بيتَ لحم أكثَرَ مِنْ ضَعيفةٍ، وبَعْضُ الفصائِلِ المُسلَّحةِ أَخَذَها الكِبْرُ بالإثمِ، فَبَقوا يُهدِّدون الاحتلال وَيَتَوعّدونَه، وَهُم يُدْرِكونَ أنَّ كافَّةَ الأسلِحَةِ الّتي يَمْتَلِكونَها لا تَتعدّى فِئةَ الأَسلِحة الخَفيفةِ.

في ذلكَ الوقتِ أدْرَكْتُ بأنَّهُ لابدُّ مِنْ وجودِ خُطَّةِ انســـحابٍ في حال اقتحامِ الاحتلال، لَقَدْ حَدثت الأُخوَّةُ في رأيي، فَلَمْ يُفَكِّروا بِه دقائِقَ لِيَكونَ القَرارُ "نعم"، لكنْ كَيْفَ؟ في ذلكَ الوَقتِ كُنْتُ أَمْتَلِكُ محلاتٍ تِجاريَّةٍ في السُّوقِ القَديم!

اقترَحْتُ أنْ نَقومَ بِحَفْرِ نَفَقٍ أَسْـفَلَ المَحلِّ، وَنُزَوِّدَهُ بِكافَةِ المُسْـتَلْزَماتِ مِنْ ماءٍ وَطَعامٍ وإسـعافٍ أوليٍّ، في حالِ تمَّ مُحاصَـرَتُنا سَـيكونُ المَلْجأَ الوَحيدَ لَنا، وأنْ لا يَتِمَّ إعلامُ أحدٍ بمكانِهِ، إلاّ في لَحظَةِ الاختباء.

تَمَّ إنجازُ النَّفَقِ، وَتَزْويدُهُ بِكلِّ ما يَلزمُ بِسريَّةٍ تامةٍ، انْسَحَبَ الاحتلالُ عَن حُدودِ بَيت لحم ليلاً، وصَـباحاً تَمَّ إزالَةُ كافَةِ العُبوّاتِ الّتي وَضَـعَتْها الفصـــائِلُ الأُخرى، فَبَدأ البَعضُ احتفالَ النَّصْـــرِ، لَقَدْ كانَ كافَةُ رجالِ الأذْرُعِ العَسـكَريَّة للفصـائِلِ يَسـهَرونَ ليلاً، وينامونَ صـباحاً، هذا الأمرُ

الّذي جَعَل الاحتلالَ يَتَنَبَّهُ لِخُطَّةٍ خَبيثَةٍ والّتي كانَتْ عُنْصُـــرَ المُفاجَئَةِ القاتِلِ في اليومِ التَّالي.

التاريخُ: الثّاني من أبريل لعامِ ألفين واثنين

السَّـــاعةُ الخامِسَـــةُ صـــباحاً، عادَ والدي إلى المَنزِلِ وَمَعَهُ ســـلاحُ "كلاشـنكوف" بِمخزنٍ دائريّ، وَوَضَـعَ السِّـلاحَ بِجانِبِ السَّـرير، وَغَطَّ في النَّوم، السَّاعة السَّابِعَةَ صباحاً عَمَّ الهدوءُ دَقائِقَ قَليلَةً، ولحظاتٍ سَجَّلْنُها في ذاكرتي...

"أمي: الأرضُ تَهْتَزُّ"، وإذا بِصُـــراخِ أميّ في المَنزل: أحمـد، اسْـتَيقِظْ! الجنودُ دَاخلَ بيتَ لحم"، لَقَدْ عمَّ المَنْزِلُ الَفوضـــى؛ ليَسْـتَيْقِظَ والدي، وَيَنْظرُ مِنَ النَّافِذَةِ لِيَجِدَ الدبّاباتِ، والجنودِ خَلفَها يَتَقدَّمونَ داخِلَ المدينة.

آخِرُ ما أذْكُرُهُ مِنْ كلماتِ والدي، وَهوَ يُمْسِـكُ الهاتف: "اقْتَحموا المدينةَ يا محمد"؛ لِيَخرُجَ والدي مُسْـرِعاً مِنَ المَنزل، وَهوَ يَحْمِلُ السِّـلاحَ وَوَجْهُهُ مَكشوفاً!...

هُنا انقطَعَ المَشـــهدُ لِنَجْتَمِعَ نَحْنُ وعائِلَةُ عمَّتي في مَنْزِلِنا، أكثَرُنا أطفالٌ، وبدأتْ أصـواتٌ الرَّصـاصِ، والقذائِفِ، ووالدي في الخارِجِ يُقاتِلُ، هذهِ اللحظات الّتي تَنْتَظِرُ والِدَكَ إمّا أنْ يَعودَ شَهيداً، أو بطلاً منتصراً.

في هذه اللحظات اقتربتِ الدبَّابة مِنْ مَنزِلِنا لتَبْدأ قذائِفُها تهزُّ مَنزلنا، الكلُّ خَرَجَ ليُقاتِل ونحنُ نَتَحَصَّـــنُ بِقوَّةِ والدنا، ونَنْظُرُ إلى داخِلِنا قليلاً، وَنَتَذكَّرُ أنَّ والِدَنا في الخارِجِ يُقاتل؛ لذلكَ سَنَنْتَصرُ، بَقينا نُشاهِدُ المَعركَةَ، ونَنْتَظِرُ الأخبار.

أمّا أُمّي فقد كانَتْ تُحاوِلُ مِراراً، وتِكراراً الاتصـــالَ بوالدي، ولَمْ يَكُنْ أحدٌ يَردّ!

انسـحبَ كافَةُ المُسلَّحينَ مِنْ جوارِ مَنْزِلِنا، وبدأتِ الدبَّاباتُ بالتَّقدُّم، وفجأةً سَمِعْنا صوتاً يُنادي بألمٍ على والدي، وكأنَّهُ مُصابٌ، "مَنْ هو"؟! "ماذا يَحدُث"؟!

بيتَ لحمٍ تَسْـقُطْ، وأملُ النَّصـرِ أصْـبَحَ رماداً، "لَقَدْ تأخّرْتَ يا أبا نصّـار"، لقدْ ذَهَبَ والدي، أدْخلناهُ المَنْزِلَ لِنُطْعِمَهُ، وَنُشْـرِبَهُ الماءَ، وَخَرَجَ مِنَ البابِ الخلفيّ. ماذا حدث؟ لا نعلم شيئاً.

كانَ يَغْمُرُنا الخَوفُ وشُعُورُ الهَزيمة، نَعم، لَقدْ هُزِمنا، وأبي الآنَ إمَّا في سُجونِ الاحتلالِ، أو رَزَقَهُ الله الشَّهادة، "يا رب احفظ والدي"، صَمْتٌ مُخيفٌ، وفجأةً، عمَّ انفجارٌ كبيرٌ، اهتزّتْ لَهُ مشاعِرُنا.

- ماذا هناك؟ هل قُصِفَ المَنزل؟!
- لا، المنزلُ بخيرٍ، فماذا حصل؟!

فجأةً رَنَّ هاتِفُ أمّي، فأَجابت: مَنْ المُتَّصِـــلُ؟؟ كَرَّرت ســـؤالها: مَنْ المُتَّصِلُ؟، فأعادَت: مَنْ المُتَّصِلُ؟

- إنَّهُ والِدُكُم.
- إنَّهُ أَبي.
- افْتَحي الخَطَّ بِسُـرعةٍ؛ لِتَخرُجَ تِلكَ الصَّـرَخاتُ مِنْ صَـدْرٍ والدي! "الله أكبرُ، الله أكبرُ، لقد دمرناهُم، ها هُم احترقوا، الله أكبرُ، الله أكبرُ".

وأَغلَقَ الخطَّ.

- يا اللهُ، يا اللهُ، انتصـــرنا، هنا بَدَأنا نكبّرُ، ونَصـــرُخُ في المَنزل: "الله أكبرُ، الله أكبرُ، انتصـرنا، انتصـرنا" شـعورٌ لا تَصَـفُهُ كلُّ الكلماتِ، شعورٌ حُرِمنا مَنْهُ حتّى يومنا هذا، وكأنَّ كِتابَ التَّاريخِ فَتَحَ صَفَحاتِهِ؛ لِيُسجِّلَ هذه اللحظات.

هنا انتهى المشـهدُ، وانتهتْ مَعَهُ مَشـاعِرُ العزَّةِ والنَّصْـرِ، سـاعاتٌ قليلةٌ حتّى اقْتَحَمَ جُنودُ الاحتلالِ مَنْزِلَنا، ساعاتٌ قليلةٌ انتهتْ بهِ البَسْمَةُ، نَعم، أحمد اختفى.

جنودٌ في كـلِّ مَكـانٍ، مِنْهُم مَنْ يَجلِسُ على أريكَـةِ والـدي، وآخرونَ ينامونَ في غرفةِ الجلوس، وآخرونَ يَســـتَخْدِمونَ مَطبَخَنا، وَنَحْنُ نَجْلِسُ خارِجَ المَنزل، نَنَظُرُ إليهم.

- ماذا حَصَل، وكيفَ وصلوا لنا؟!
- أين اختفى والدي؟!

فبيتَ لحم اغْتُصِـــبَتْ، والبَحْثُ عَنْ أبْطالِها أَصْـــبَحَ في قلوبِ كلِّ أَهْلِها وَعُقولِهِم، امتَلأتِ الشَّـوارِعُ بالدِّماءِ، والأَزِّقَةُ بالرَّصـاصِ، والقَذائِفِ، وأصْـواتِ مُحرّكاتِ الدَّباباتِ، وَضَـجيجُ مَروَحياتِ طائراتِ "الأباتشـي" كانَتْ كوابيساً للنّائمين.

في اليومِ السَّابِعِ وَصَلَتْنا الأخبارُ أخيراً، فأُمي أُغْمِيَ عَليْها.

- ماذا هناك؟ مَنْ هذا الرَّجُلُ الغَريبُ؟ ماذا قال يا عمَّتي؟

صَمْتٌ مُخيفٌ، أَخبرني ماذا هناك؟

الرَّجُلُ: "اعذُروني هذا الّذي شاهدْتُه".

- ماذا شاهدت؟ أخبرني.

الرّجل: لَقَدْ شاهدْتُ والدَكَ، وهوَ يَقِفُ متوسط الشَّارِع يُطلِقُ النّارَ على الجُنودِ، وفجأة...

- ماذا؟، أكمِل.

الرّجل: سَقَطَ على الأرْضِ شَهيداً، رَحِمَهُ الله، والِدُكُمْ كانَ بَطَلاً، آخرُ ما أَوصى به، أنْ أُخبِرَكُم أنَّهُ استُشْهِدَ وَجْهاً لوجه.

لم نُصَدِّقَ أنَّ والدي اسْتُشْهِدَ، وَبَقينا نُوَجِّهُ الأسئِلَة، ونُكَرِّرُها، كيف؟ متى؟

هل شاهدتَهُ يُفارِقُ الرُّوح؟

كانَتْ إجابَتَهُ غَيْرَ كامِلَةٍ، لِنَقْتَنِعَ باستشهادِ والدي، وخاصةً أنَّهُ غادَرَ المَكانَ الّذي كانَ به والدي، وهو حيٌّ؛ لَكنَّ إصابَتَهُ كانَتْ خطيرةً، ولا يَقوى على التَّنَفُّسِ والكلام.

كنَّا نَحْنُ وعائلةُ عمَّتي في المَنْزِل، وكانَتْ بيت لحم ممنوعاً بها التَّجوّل، الأوضاعُ مُتَوَتِّرَةٌ ولَمْ نَسْتَطِعِ الخُروجَ للبَحثِ عن والدي، فالجُنودُ في كلِّ مكانٍ، وعندما سُمح بالتّجوال بدأَ الجيرانُ بِتَعزيَتِنا!

كنَّا صغاراً لا نعلمُ معنى أنَّ والدي اسْتُشْهِد، لا نَعلمُ أنَّه إذا اسْتُشْهِدَ لا يُمكنْ أنْ نَتَحدَّثَ مَعَهُ مرَّةً أُخرى، كُنْتُ انتظرُ أنْ تَنْتَهيَ كلُّ هذهِ الأحداثِ؛ حتّى أُخبِرَ والدي بكلِّ ما حَصَلَ، لكنَّ الغَريبَ في الموضوع:

أنَّ الاحتلالَ بدأَ يَقْتَحِمُ مَنزِلنا كلَّ يومٍ، ويسأَلُ عن والدي! فَنَقولُ للجنودِ: "لَقد قَتَلتُموه".

كلُّ هذهِ الأمورِ جَعلتْنا في حَيرةٍ، هَلْ والدي اسْـتُشـهد؟ هل ما زالَ حيّاً؟ ماذا حَصَلَ؟!

لا يُوجَدُ أخبارٌ، يا الله! ما أصـــعبَ تِلكَ اللحظات! تَدْخُلُ المَنزلَ وتُشـــاهِدُ والِدَتَكَ تَبكي على أبيك، وَعمَّتُكَ تَجلِسُ صـــامتةً، وكأنَّ الدُّنيا قُلِبَتْ جَحيماً مِنْ نوعٍ آخر.

- أينَ أنتَ يا أبي؟ لماذا تأخَّرتَ علينا؟
- أَلَمْ تَعِدُني بأنْ تَبقى إلى جانِبِنا دائماً!
- أَلَسْتَ مَنْ قُلْتَ لي: "أنا أقوى مِنَ الاحتلال"؟
- هل حقاً استطاعوا أَنْ يَغلِبوك؟!

لم تمضِ الأيام كثيرا حتى كانت المفاجئة

انسْـــحَبَ الاحتلالُ مِنْ مَدينةَ بيت لحم، وانْتهى اجتياحُ الكَنيسَـــةِ، وَخَرجَ الجُنودُ مِنْ مَدينتا، وَبَدأتْ حياتُنا مِنْ جَديد، لَكنْ هذهِ المرَّة نَفْتَقِرُ لِمشـاعِرِ العزِّ، وَنَفْتَقِرُ إلى أبْطالِنا، فَنَحْنُ الآن يَتامى دُون أبٍ، وَمدينَتي الآنَ يَتيمةٌ دُونَ مُقاومَتِها الباسِلةِ.

فَلَمْ يَعُد بها أبطال، وقدْ رَحَلَ شُيوخُها

- أمّي، إلى متى تَبقى الحياةُ هكذا؟!

- أبي، أينَ أنتَ؟ إلى متى فراقُك؟!

فَقَدْ اشـتقنا لابتِسـامَتِكَ، واشـتقنا إلى أحضـانِكَ، وقُبُلاتِك، عُدْ إلينا نَحنُ نَنْتَظِرُكَ!

اسـتيقظتُ صَـباحاً؛ للَّعِبِ مع أبناءِ عَمَّتي أمامَ مَنْزِلنا، ذلكَ الصَّـباحَ المُشْرِقَ، الّذي أتَمنّى أنْ أُشاهِده في أيّامي هذهِ، ليُنادي عليّ ابنُ عَمَّتي: يا محمود: هناكَ سَيِّدَةٌ تُريدك.

- أنا: أهلاً سيّدتي تَفَضَّلي؟

- السّيّدة: أُريد أَنْ أُقابِلَ أُمُّك.

- أنا: تَفَضَّلي، أُدخلي مَنْزِلُنا.

دَخَلَتْ مَنْزِلَنا، وكانَتْ تَنْظُرُ إليَّ بِطَريقةٍ غَريبةٍ، وكأنَّها تَعرِفُني..

- أنا: لِماذا تَنْظُرينَ إليَّ هكذا؟!

فَخَرَجَ ذلكَ الصَّوْتُ المُخيف: "أَوَلَم تَعْرِفُنْي"؟!

- أنا: مَن أنْتِ؟

- يا الله، يا الله، مَنِ أنتِ؟

- إنَّه والدي، حقًا والدي!

- أُمّي، أخي، يا الله عاد لنا والدي!

والدي: اصمتْ، اصمتْ؛ حتّى لا يسمَعَكَ أحدٌ.

أنا: أُريدُ أنْ أحضنَكَ، أُريدُ أنْ أُقبّلَكَ، أُريدكَ لي فقط.

- لماذا تأخَّرْتَ علينا؟ لماذا يا والدي؟

وانهرْتُ بالبكاءِ، وبدأَ يحتَضِنُني، وَيَبكي عليّ، وهو يَقول:

"ها أنا حيٌّ، أنا أَمامَك، لَنْ أَتْرُكَكَ مَرةً أُخرى، أَعِدُكَ بذلك".

إنَّهُ حيٌّ لَمْ يَمُتْ، لَقد عادَ لَنا والِدُنا، لِيَعْتَني بِنا مَرةً أُخرى. بَدأَ والدي يَسْرُدُ عَلينا قِصَّةَ إِصابَتِهِ، وَكَيْفَ أُصيبَ، وَبُكاءُ رَفيقِهِ مُحمدٌ عَليه.

قائلاً: "لَقد اعْتَقَدَ رِفاقي بأنّي اسْتُشْهِدْتُ، فأَوَّلُ مَنْ جاءَ في ذهني هو أَنتم، كَيف سَأترُكُكُم؟! وبدأتُ أُوصي رِفاقي بِكم، وأَخي محمدٌ يَبكي، ويَحتَضِنُني، ثمَّ انسحبنا بعد ذلك داخِلَ النَّفق الّذي أَمْضَيْتُ بداخِلِهِ عشرينَ يوماً؛ حتّى يَلْتَئِمَ الجُرحُ، ثُمَّ خَرَجنا في أَوَّلِ سماحٍ للتجوُّلِ، فَقَدْ ذَهَبْتُ أنا إلى أحدِ أصدِقائي الّذي استطاعَ أَنْ يُجَهِّزَ مكاناً لأختبئَ فيه، حتى انتهاءِ الاجتياح. المُهِمُّ أَنَّكُم بخير، وأنا بِخير، فقد عدُّتُ إليكُم الآن، وأنا مُشتاقٌ لَكم كثيراً".

أنا: أبي، ابقَ معنا، لا تَتْرُكنا، فَنَحنُ لا نَستَطيعُ العَيشَ لوحدِنا....

هذهِ الكلماتِ الّتي كُنتُ دائماً أقولُها لوالدي، لمْ أكنْ أعلمُ أنّنا سَـوفَ نَبدأُ الآن حياةً أُخرى، حياةً مليئةً بالمُطاردات، حياةً مليئةً بالاقتحامات، حياةً مليئةً بالفَوضى...

عِندما أردْتُ أنْ أكْتُبَ هذا الكتاب احتَرْتُ في اختياري العنوان المناسب لهذا الكتاب، فماذا سيكونُ عنوانُ كِتاب يَسْرُدُ تاريخ حياةِ أحمد؟!

لم أجد عنواناً أَختارُهُ لهذا الكتابِ أفضلَ من عنوان "**تضحية ونصر**"، وخاصةً أنَّ هذا الكِتاب سَيُسلِّطُ الضَّوءَ على حياةٍ مليئةٍ بالاعتقالاتِ والمطاردةِ، تِلكَ الحياةُ الّتي تَحدّى بها أحمدُ كلَّ أجهِزَةِ المُخابراتِ، وَوِحداتِ الاحتلالِ الخاصة، فَقَد كانَ المُتَنَكِّرَ بعشرِ شخصيات، وأيوبَ في صبْرِهِ تَحْتَ الأرْضِ، والذِّئْبِ الّذي لا تَغْمَضُ عيناهُ عِنْدَ النَّومِ، والحَكيمِ الّذي يَحْتَضِنُ العَلمَ الفلسطينيَّ بكافَّةِ ألوانِهِ.

كلُّ تِلكَ الصِّفاتِ اجْتَمَعَتْ؛ لِتَلِدَ شَخْصيَّةَ أحمد، لِيَمْضيَ وحدهَ بعدَ هذهِ السّنَواتِ، وَيخطو بِقَدَميْهِ فَوقَ رؤوسِ الخَوَنَةِ والعُملاءِ، وهُمْ يَتَعثَّرونَ في غابَتِهِ المُحصَّنَةِ، لِيَصنع أسطورَتَه فَوقَ رؤوسِ الأعداءِ.

فَكيفَ طاردَتْه أجهزَةُ المخابراتِ وجندتِ العُملاءِ؟ واســـتخدمتْ كلَّ ما لديها من تِكنولوجيا للإيقاع به، واغتيالهِ، وكيفَ عاشَ ثماني سـنوات مُقلقاً العدوّ؟!

كلٌّ هذهِ الأسئلةِ، سَوفَ تَجدُ أَجْوِبَتَها في هذهِ الرِّوايةِ...

مُطارَدٌ

لَقَدْ بَدأتُ حياةً جَديدةً... مِنْ اقتحاماتٍ ليليةٍ لِمنزلي، وعُملاءَ في كلِّ مَكانٍ، وحياةٍ مليئةٍ بالمراقَبةِ، فَكُنْتُ كأيِّ إنسانٍ يَخوضُ تَجرِبَةً جديدةً في حياتِهِ، أَشْعُرُ بالخوفِ الّذي امتَزَجَ برائِحَةِ التَّحدي.

تُراودُ ذِهني أسئلةٌ كثيرةٌ:

أينَ سأختبئُ، وأين سأذْهَب؟

هل سأعيشُ، أو أُسْتَشْهَدُ؟

كيفَ سَتكونُ حياتي الجَديدةُ؟

أُمي، زَوجَتي، أولادي!

كيفَ سَأَتَدبّرُ أُموريَ المالية؟

كلَّ هذهِ الأسئلةِ كانتْ قَد اجتاحَتْ رَأسي، إنَّهم "الشين": بيتُ أقوى أجهزةِ أمْنِ الاحتلال.

سَيكونُ التَّحدّي أنا، أو هُم؟

قد أكونُ لِوَحدي في هذهِ المَعركةِ، ســأواجهُ جيشــاً مِنَ الوحوشِ من ضبَّاطٍ وجنودٍ، إلى عُملاءَ وجواسيسَ، قد لا أَجدُ مَنْ يَقِفُ إلى جانبي!

حتّى أبناءَ شَعبي دَبَّ الخوفُ فِيهُم، ومع ذلكَ اتَّخذْتُ قراري..

هي الحَربُ.

لنْ أسْـتَسْـلِم، سَـوْفَ أجْعَلُ حياتي مُلكي، لَنْ أضْـعُفَ، ولَنْ أخْضَـعَ، الموتُ بدايَةُ الحياةِ للشُّـــرفاء، وبدايَةُ النَّعيمِ للمُؤمنين، والفَوزُ العَظيمُ للشُّهداء.

التَّفكيرُ والصَّبْرُ هي البدايةُ...

التَّعلُّمْ مِنْ تَجارِبِ الغَيْرِ، ودراسَةُ الواقِعِ بَناءً على استبصارٍ سليمٍ، هو سَبَبُ الخُروجِ بأفكارَ سليمةٍ، فهذا الاحتلالُ يَعملُ على دِراسَـةِ الخارِطَةِ الدِّماغيّة لكلِّ شَخْصٍ، بناءً على عدَّةِ عواملَ، وهي:

أولاً: البيئَةُ الّتي نَشَأَ بها المُقاوم.

ثانياً: أُسْرَتُهُ، وأَصْحابُهُ، وَعَمَلُهُ.

والإنسـانُ دائماً لا يَشْـعُر بالأَمانِ، إلا في المَكانِ الّذي يَعرِفُه، فأَوَّلُ فِكْرَةٍ هي: اختيارُ "المكانِ السَّـليم"، يَجبُ أَنْ يَكونَ بَعيداً عَنْ بيئَتي، فَقَدْ كُنْتُ إنسـاناً يَخْتَلِفُ عن البعض، أُحِبُّ المُغامَرَةَ والتَّحدي، وَعَزَمْتُ على أنْ أَجْعَلَ مِنْ شَخْصـي وَحيداً، أبْتَعِدُ عَنْ أُسرَتي وعائِلَتي، وأخْلُقُ لِنَفْسـي شَـــخْصـــيَّةً جَديدَةً، فاخترْتُ لِنَفســـي أبعدَ مَكانٍ عَنْ كافَّةِ الدَّوائِرِ الّتي تَخُصُّني.

إلى أينَ سأذْهَب؟ هلْ أذْهَبُ إلى قَرْيَة؟

لا، كلُّ سُكانِ القُرى يَعْرِفونَ بَعْضَهُمُ البَعض، وأيُّ شَخْصٍ غَريب يَدْخُلُ بينهم سَوْفَ يُثيرُ الشَّكْ.

- هل أذهبُ إلى المُخيّمات؟
- لا، أيضاً إنّها نَفسُ المُشكلة.
- أعتقدُ أنَّ المُدنَ سَتكونُ أفْضَلَ الأماكِنِ، لكنْ أيُّ المُدُنِ أختار؟!
- الاختيار سِيكونُ بناءً على أمرين، هما:

أولاً: أنْ تَكونَ مدينةً كبيرةً.

ثانياً: لا يَخْتَلِطُ سُكّانُها معْ بَعضِهمُ البَعضَ كَثيراً.

- فما هي هذهِ المدينةِ؟
- نعم، هي "رام الله".
- سأبدأُ بِتَجهيزِ أُموري للسَّفرِ إليها ...
- ها قد اخترْنا المكان، ماذا يَلزَمُنا الآن؟!
- أحتاجُ إلى شَخصيّةٍ أُخرى.
- سَأقومُ بِتَزويرِ وثائِقي الشَّخصيّة، وتَغييرٍ في شخصيتي من "أحمد" إلى "إنسانٍ آخر" يتأقلمُ مع البيئةِ الجديدةِ.
- حسناً،
- ما هيَ الخُطْوَةُ الثَّالِثَة؟

- المالُ، أحتاجُ إلى المال؛ لبدايةِ حياةٍ جديدةٍ.

لَقَدْ كانَتْ هذهِ أهمُّ ثلاثَةِ أمورٍ، إذا اسِـــتَطَعْتُ عَمَلَها وَتَوفيرها، يَتبقّى بَعضُ التَّفاصيلِ الصَّغيرة.

- كيفَ أزورُ أوراقي؟
- هلْ أسْتَطيعُ تَغييرَ شَخْصِيَّتي؟
- والأهمُّ مِنْ كلِّ ذلكَ: كَيْفَ أُسافِرُ إلى "رام الله" بِشكلٍ آمنٍ؟
- كَيْفَ أَسْتَقِرُّ هُناك؟!
- كيفَ أَتَدَبَّرُ شُؤوني الماليَّةَ هُناك؟
- مِنْ أيْنَ سَتَكونُ نُقْطَةُ البِدايَةِ الّتي سَوْفَ أبْني عَليها كلُّ خُطَّتي؟

كلُّ هَذِهِ التَّساؤلاتِ تَدورُ في رأْسي.

كلُّ هَذِهِ التَّساؤُلات كانَتِ السَّبَبَ في نَجاحي في كلِّ عَمَلٍ أقومُ بِه.

كانتِ الأَوضـــاعُ في ذلكَ الوَقْتِ غَيْرَ مُسْـــتَقِرَّةٍ، والتَّنَقّلَ بين المُحافَظاتِ مِنْ أصْعَبِ العَمليات، وأجْهِزَةِ المُخابراتِ وخُبراءُ الاتصالاتِ يُراقِبونَ كلَّ المُكالمات.

لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّهْلِ أنْ أتواصَلَ مَعْ أصْدِقائي لأَتَدبَّرَ أُموري، وَلَمْ يَكُنْ مِنَ السَّهْلِ زيارةُ أحدٍ لِيُساعِدَني..

- أَشْعُرُ بالإحباطِ، أَشْعُرُ بالوحدة..

الآنَ أَفْضَــلُ عَمَلٍ أقوم بهِ هو: التَّوَجُّهُ لَرَبي، فإذا كانَ ربُّ الكَونِ مَعي، فَممن أخاف!!

"يا ربُّ، كُنْ مَعي، يا ربُّ، لا تَتركْني لِوحدي، يا ربُّ، لقد ولَّيْتُكَ أمري، فانصرني!"

دقائقُ حتّى سَمعتُ صَوتَ صَديقي الّذي كانَ يؤويني في بَيْتِه:

- أحمد، أحمد،
- الدَّبابَةُ أمامَ المَنزِل!

صَـــمْتٌ مُخيفٌ، عَمَّ الهُدوءُ في كلِّ مكانٍ، نَظَرْتُ مِنَ النَّافِذة: نَعم، إنَّها دبّابَةٌ يا صديقي، وَيَبدو أنَّهُم حاصروا المَنْزِل.

- صَديقي: ماذا سَتَفْعَلْ يا أحمد؟
- أَعِطني بُنْدُقيَّة حتى أُقاتِل مَعك.
- أنا: لا، أُخرجْ أنتَ الآن.
- صديقي: لَنْ أخرُج.

أنا: قُلتُ لك أُخْرُج، لَديكَ أطفالٌ تَرعاهم!

- صديقي: واللهِ لو قَتلتَني ما تَرَكْتُك، سوفَ أبقى معك.
- أنا: أُخرجِ الآنَ قَبلَ أنْ يُفَجّروا المَنْزِل.

- صـــديقي: لا، واللهِ لنْ أتْرُكَكَ، لَنْ أُســـجِّلَ في ذِكرياتي أنّي تَرَكْتُ صَديقي يُقاتِلُ لوحده.

- أنا: يا الله ارْحَمني.

ثوانٍ حتّى سَمِعنا صَوْتَ الدّبابة قَد اشتَغَلَتْ، نَظَرْتُ مِنَ النَّافِذَةِ، وإذا بها تَبْتَعد..

- أنا: يا الله رحمتك، إنَّها تَبْتَعد.

- أُخرج، وانْظُر خَلفَ المَنزل، هلْ يوجدُ أحد؟

انْتَظَرَ قليلاً، ثمَّ خَرَجَ.

- صديقي: نَعم، لقد رَحلوا.

يَبدوا أنّه في ذلك اليَوم قَد تَوَقَّفَت الدَّبابة بجانبِ المَنزل بِشَـــكلٍ عفويٍّ، لكنّي عَلِمْتُ في ذلك اليوم كَمْ أنَّ صَـــديقي رجلٌ مُخْلِصٌ، فذلكَ المَوقِفُ الّذي حَفِظَتْهُ ذاكرتي، سَـــوْفَ أتكلَّمُ عَنْهُ لكلِّ إنســـان؛ ليعلمَ أنَّ الصَّـداقَةَ لا تُكْتَشَـفُ، إلا بِمِثْلِ هذهِ المَواقِف، لَقَدْ عَلِمْتُ وَقتها أنَّ شَـعْبَنا لا يزالُ فيه الشُّرفاءُ وأصحابُ المَبادئ.

- شكراً لكَ يا صديقي؛ لكنّي لا أستطيع المكوثَ في مَنزِلِكَ طَويلاً، إنَّ مَنْزِلَكَ مُعَرَّضٌ في أيِّ لَحْظَةٍ للاقْتِحام، وأنا يَجب أنْ أبتَعِدَ قليلاً عنِ البَلد.

- سَـأَتوجَّهُ إلى "رام الله" لدَيَّ صَـديقٌ تَعَرَّفْتُ عَليْهِ في السِّـجْنِ، وأَذْكُرُ أنَّهُ صديقٌ مُخْلِصٌ،
- سَــوفَ أذْهَبُ إليهِ في اليومِ الأوَّلِ؛ ليُســاعِدَني في تَدَّبُرِ مَكانٍ جيدٍ للبَقاءِ فيه.

بَعْدَ يَومَيْنِ كُنْتُ قَدْ أَعْدَدْتُ نفســي للسَّـفَر، وَعَقَدْتُ العَزْمَ، وودَّعْتُ صَديقي، وَفَتَحْتُ البابَ دونَ أنْ أنْظُرَ خَلفي، وبَدَأتُ السَّيْرَ في الطُّرُقات، ولا أنْسى ذلكَ اليَوم، كانَ الجَوُّ غائماً، والأمْطارُ تَهْطِلُ، وأنا أمْشي تَحْتَ المَطر، وأنْظُرُ إلى البُيوت، والطُّرُقاتِ الّتي تَرَعْرَعْتُ فيها.

آه يا إخوتي، ما أصْـعَبَ هذه المشـاعر! لا أسْـتَطيعُ السَّـيْطَرَةَ على دُموعي، وهي تَنْهَمرُ مِنْ عينيَّ، قَدْ تَكون هَذهِ آخرُ مرَّةٍ أرى فيها بيتَ لَحم، وأَمشي على بَلاطِها القَديمِ المَليء بِرائِحَةِ الذِّكْريات.

كُنْتُ أَلْعَبُ هُنا لسـاعاتٍ، ثُمَّ أعودُ إلى مَنزلي الّذي كانَ بالقربِ مِنْ كَنيسَةِ مَهدِ المَسيح، ذلكَ المَنزلُ الّذي كانَ داخِلَ "حوش" العائِلة، العائلةِ الّتي نشأتُ فيها.

كنَّا نَمضـي أيَّامَ فصـلِ الشِّـتاء هذه ونَحنُ نوقِدُ النَّار؛ لِنَجْتَمع حَولَها، ونَبْدأ بالضــحكِ والمُزاحِ، كُنْتُ أُحبُّ أنْ أصْـنَعَ "الكنافة النَّابلسـيّة" على الفَحمِ كُلَّ مساءٍ مِنْ اللّيالي الشَّتَويّة.

آخ، لَقَدْ شَـــتَّتُ تَفكيري كَثيراً، حتّى وَجَدتُ نَفســـي أمامَ مَنزلٍ قَيدَ الإنشاء، وَيوجَد حَولَه سورٌ اسمنتيّ، عَزَمْتُ الدُّخولَ لأقي نَفسي مِنْ مياهِ الأمْطار الّتي كانتْ تَسْقُطُ بغزارة.

قَفَزْتُ عَنِ السُّـــور، ودَخَلْتُ المَنزِلَ، وأوَّلَ عَمَلٍ قُمْتُ به هو: تَفَقُّدِ المَنْزِلِ بالكاملِ، لَمْ أَجِدْ شـــيئاً سِـــوى بَعضِ الملابِسِ القَديمة، جَمَعْتُ المَلابِسَ حَولي؛ لأسْـتَدفئَ بها، وَجَلَسْـتُ في زاويةِ المَنزِلِ، وَأَخْرَجْتُ مِنْ جَيبي كتابَ الله الّذي كانَ بِصُـــحبَتي دائماً، وَبَدأتُ أقرأُ آياتٍ مِنَ الذِّكْرِ الحَكيم.

في ذلكَ الوَقتْ كُنْتُ لا أبْتَعِدُ عَنْ بُنْدُقيَّتي مِنْ نَوع (أم بي فايف كتسار)، أَخْرَجْتُها من تَحْتِ ملابسي، وَوَضـعْتُها بجانبي، حتّى أستَريحَ في غَفْوَتي، كُنْتُ لا أسـتطيع السَّـيْطَرةَ على جَسَـدي من رِجافِ البَرد، لكنِّي لا أزالُ أسْمَعَ أصواتاً!

أَظُنُّ أنَّها مِنْ قوّةِ الرِّياحِ والأمطارِ؛ لكنَّ الصَّوْتَ يَقترِب!

تناولتُ سِلاحي وَنَهَضْتُ،

إنَّها صَوتُ أقدامٍ تَقْتَرِب، هَلْ هو شَخْصٌ فَقَطْ، أمْ أكثَرُ مِنْ شَخصٍ؟

اختبأْتُ فيِ إحدى زوايا المَنزل، وبَدأت أتَرَقَّبُ.

الأقدامُ تَقْتَرِب، سَحَبْتُ أقسامَ البُنْدُقيَّةَ بِهدوءٍ، اصبعي على الزِّناد، وَفجأةً سَمِعْتُ صوتاً يقول:

- "أبي، لا يوجدُ أحدٌ هنا."

- "انتظر يا والدي، بَقيَت الغُرفَةُ الأخيرة"

عَلِمْتُ وَقتها أنَّهُ أبٌ وابنه، وَضَـعْتُ البُنْدُقيَّةَ أرْضـاً، حتّى قابَلَتْ عينيّ عينَ الأبِ...

- سألني: مَنْ أَنْتَ؟

- ماذا تَفْعَلُ في مَنْزِلي؟

- أنا: اعذْرني يا عم، أنا مُطاردُ للاحتلال، وَقَدْ اشْـتَدَّ عليَّ المَطر، فَلَمْ أجِدْ غَيْرَ مَنْزِلِكَ، لِيؤويني.

الأبُ، والابنُ يَنْظُرانِ لي نَظْرَةً مُخيفةً!!

لَحظاتٌ مِنَ الصَّمْتِ..

طَردني قائلاً: أُخرجْ مِنْ مَنزلي، أُخرج لا أُريدُ أنْ أراكَ مرةً أُخرى هنا!!

- أنا: لَهْ يا عماه!

- لَهْ يا عماه!

ثَوانٍ مَضَـتْ، وبعدها حَمَلْتُ بُنْدُقيَّتي، وَخَرَجْتُ وأنا أُكلِّم نَفسـي، وَكُلّي غَضَبْ..

- آخْ يا جُرحي!
- أَرْضي اليَوْمَ نَثَرَتْني! وأنا ضَائِعٌ بَيْنَ أَشواقِ العِزَّةَ، وَواقع الذُّل..
- آخ يا ربي!
- الأرضُ ضاقَتْ عليَّ فَجأةً، أَيْنَ أنا؟ أَيْنَ أذْهَبُ؟
- لا أَعْلمُ.
- ما أَصْعَبَ مرارةَ أَنْ يَخْذُلَكَ أبناءُ دينِكَ، وأبناءُ وَطَنِك!

فَعَدوُّكَ الّذي لَمْ يَسْتَطِعْ أنْ يُدَمّرَ مَعْنَويّاتِكَ بِسَجْنِكَ عشراتِ المَرّات، وَقَتَلَ أوْلادَكَ، وَهَدَمَ مَنْزِلَكَ، واللهِ أنَّ كَلمةً واحدةً مِنْ أبناءِ شَـــعبِكَ تَكفي أنْ تُحَطِّمَك.

- رأسي ثَقيلٌ،
- دقّاتُ قَلبي تَتَسارعُ،
- لا أسْتَطيعُ التَّنَفُسَ،
- لماذا يا الله؟!
- لماذا يا الله؟!
- ألمْ نُقاتِل مِنْ أَجْلِهِم!
- ألمْ نُسْجَنَ مِنْ أجْلِهم!
- ألمْ نُجرَح مِنْ أجْلِهم!

- تَركنا أولادَنا وَزَوجاتِنا، تَركنا حياتَنا لأجْلِهم، وقدْ طَردونا!

- مشـــاعر بِداخلي تَقولُ لي: عُدْ إليهِ؛ لِتُعلِّمَهُ درســـاً مِنْ دروسِ الوَطن...

تَلَقَّفْتُ بُندقيّتي عن صَدري، والتفتُّ إليه، ثمَّ أتَتْ عينيَّ في عينِ ابنه..

- لا، لا.

لَمْ أحْمِلْ بُنْدُقيَّتي لأُرْهِبَ بها أباً أمام ابنه، لكنّي لَمْ أسْتَطعْ أنْ أُخفي مَشـاعِري، فَعندما هَمَمْتُ بالكلامِ، وَضَـعْتُ عينيّ في عَينِ الفتى، وقلتُ لَه: "بُنيّ، كُنْتَ شَفيعاً لوالِدِكَ"، وبدأتُ أَمشي بَيْنَ حنايا طُرُقاتِ بيتَ لحم ومنازِلِها.

ماذا أفْعَلْ؟ لا يُمْكِنُ أنْ أسْـــتمرَّ في السَّـــيْرِ بهذهِ الملابِسِ المُلفِتةِ للانْتِبـاهِ! والأمطـارُ لَمْ تَتَوَقَّفْ، خَرَجْـتُ عَنِ الطَّريق، حتّى دَخلـتُ في قَطْعَةِ أرضٍ، أمامَ مَنزلٍ مليءٍ بالأشـجارِ، اختَبأتُ تَحْتَ الأشْـجارِ حتّى يَتَوَقَّفَ المَطر.

انتظرتُ لِساعةٍ، وَلَمْ يَتَوقَّفِ المَطر...

كُنتُ أنْظُرُ إلى المَنزل، وأنا فاقدٌ الأملِ، ماذا أفعل؟ لا أسْـــتَطيعُ الوقوفَ على قدميَّ مِنَ البَرْد، هَلْ أَذْهَب، وأطلُبُ الإذْنَ بالدُّخول؟

أخافُ أنْ يَتِمَّ طَردي مرةً أُخرى!

أنا لِوحدي الآن، لَنْ أَذْهَب، دعني أموتُ مِنْ شدَّةِ الأمطارِ على أنْ أَسْمعَ كلاماً يَجعَلُني أموتُ مِئَةَ مرَّة مِنَ الألمِ والخُذلان.

جَلَسْتُ تَحْتَ شَجرة، حتى لمْ أعُد أشْعُرُ بجسدي، بدأتْ عَينايَ تَغْمِضُ من شدَّةِ البردِ، وفجأةً أضاءَتْ السَّماءُ، وبدأَ الرَّعْدُ والبَرْقُ، وأنا أجلِسُ وَحدي تَحْتَ المَطر.

أُمي، أبي،

زَوجتي، أولادي،

سامِحوني!

هُناك نورٌ أمامَ عينَيّ، إنه ليْسَ ضوءُ البَرقِ، لقد أضاءَ أحدٌ الشُّرْفَة، هُناكَ مَنْ يَنْظُرُ إليَّ، مَنْ؟!

فُتِحَ البابُ، وخَرجَتْ امرأةٌ تَرْكُضُ، وَهي تَحْمِلُ بَطَّانيّةً.

قالتْ: بُنيّ، ماذا تَفْعَلُ هُنا في مِثْلِ هذا الطَّقْس؟

- تَفَضَّل، وادخلْ مَعي.

وَضَعَتِ البَطَّانيَّة حَولي، وأدْخَلتْني المَنزل، ثُمَّ أجْلَسَتني أمامَ المَوْقِد، وأحْضَرَت المزيدَ مِنَ البَطّانيّات، وَوَضَعَتْها عليَّ، لَمْ أَسْتَطِع التَّكَلُمَ مِنْ شِدَّةِ البَرد، كُنْتُ أَنْظُرُ إلى جُدرانِ المَنزلِ المَليئةِ بصورٍ لسيدَتنا مريم العذراء.

- أغْمَضْتُ عينيَّ، وَغَفَوتُ فجأةً أمامَ الموقِد، استَيْقَظْتُ على صوتٍ أعْرِفُه، إنَّهُ صوتُ أمّي! أمّي، ماذا تَفعلينَ هُنا؟
- هَذه المرأةُ المَسيحيّةُ صَديقتي، لَقَدْ عَرَفَتْكَ وأخْبَرتني عَنك!
- لقد أتيتُ أنا، وزوجَتُكَ، وأطْفالُكْ، أَلَمْ تَشْتَق لنا؟

أنا: بَلى يا أُمّي، أَيْنَ هُمْ أطفالي؟

يا الله، كم أنا مشتاقٌ لهم!

أمي: ها هم قادمون، اذهبْ وافتحِ الباب.

وفجأةً سمعتُ صوتاً خفيفاً.. "بُنيّ، بُنيّ، استيقظ".

نظرتُ حولي، يا الله! كنتُ أحلمُ،

آخ ما أجملَهُ من حلمٍ! يا لَيتني رأيتُ أطفالي قبلَ أن استيقظَ!

صَمَتُّ قليلاً، وأنا أنظرُ حوَلي، وإذا بالسّيّدة المُحتَرَمَة تُحْضِرُ في يَدها الطّعام، وتقول:

"تناولْ يا بنيّ، اعذرْني هذا كلَّ ما أَمْلِكُه مِنْ طعامٍ".

أنا: لا يا سيّدتي اعذرْيني أنا، أشْكُرِكِ على استِضافَتِك لي، وعلى هذا الطّعام.

السّيّدة: هذا أَقَلُّ الواجبِ؛ لكنْ لمْ تُعَرِّفْ عَنْ نَفْسِكَ يا بني، وما هي قصَّتك؟

صمتُّ قليلاً؛ لأفكِّر.

السّيّدة: تَكَلَّمْ يا بُنيَّ، لا تَخف.

– اسمي: أحمد، وأنا يا سيّدَتي مُطاردٌ للجيشِ الإسرائيليّ.

السّـيّدة: لا تقلقْ بنيّ، كلُّ بيوتِنا بَيتُك، خذ راحتك، وتصـرَّف كأنَّك في مَنزِلك، كما ترى أنا سـيّدة في الثَّمانيناتِ مِنْ عُمري، وأسـكنُ لوحدي، ولديَّ مِنَ الطَّعام ما يكفيني ويكفيك.

أنا: شكراً لكِ يا سيّدَتي.

ما أجمَلَ هذه الكَلِمات! لَقد أعادتِ الرُّوحَ إلى جَسدي.

أنهيتُ طَعامي، ونَهضْتُ في جَولةٍ أَتَعرَّفُ فيها على المَنزل.

سَألتُها: سَيّدتي، لماذا تَعيشينَ وحْدَكِ؟

أجابتْ: بُنيَّ، كُنتُ مُتزوجةً مِنْ رَجلِ دينٍ مسـيحيٍّ، ولمْ أُنْجب أطفالاً، وتوفي زوجي وعمرُهُ ثلاثةٌ وأربعونَ عاماً.

أنا: يا إلهي! وكمْ كانَ عُمركِ؟

أجابت: "كنتُ في سنِّ الثامنةِ والثلاثين".

أنا: أَبَقيتِ لِوحدك أربعينَ عاماً؟

أجابت: نَعم يا بُنيّ، لَقد اختارَ الله أنْ أَعيش بقيّتَ حياتي لوحدي، وأنا راضيةٌ بإرادةِ الله.

السّيّدة: وهلْ أنتَ يا بُنيّ مُتَزوِّج؟

أجبتْ: نَعم يا سيّدتي، ولديَّ ثلاثةُ أطفالٍ.

السّيّدة: باركَ الله بهم.

أنا: شكراً لكِ سيّدتي.

ثُمَّ دَخلنا إلى إحدى الغُرَف، وأَخبرتْني السّـــيّدةُ أنَّ هذهِ غُرفتي الّتي سأنامُ فيها، ثُمَّ أَخْرَجَتْ مِنْ تحتِ السَّريرَ حَقيبةً قديمةً، وَفتحَتْها، وإذ هي حقيبةُ ملابِسِ زَوجها.

السّيّدة: بُنيَّ، ارتدِ ما يلزمُك مِنَ الملابِس.

أنا: شُكراً سيّدتي.

جَلَسْـــتُ أُقلّبُ الملابِس، يا إلهي! كم كانت هذه السّـــيّدةُ محترمةً! لقد قدَّمَت ليَ ملابِسُ زَوجها!

وَأنا أُقلّبُ الملابِسَ، شـاهدتُ ملابِسَ رَجلِ الدّين المسـيحيّ، عباءَتُه، قُبَّعَته، وصليبُه الكبير، فخطرت في بالي فكرةٌ جديدةٌ، وهي وسيلةُ تنكري الجديدةُ، قد أسْـــتَخدِمها عِندَ الحاجةِ، فبعدَ ثلاثةِ أشـــهرٍ مَرَّت وأنا في ضيافَتِها، لَمْ أَشعر يوماً بأنّني غَريبٌ، كانَتْ تُعاملني وكأنّني ابنٌ لها.

لكنْ بدأتْ تزدادُ قناعَتي بمغادرةِ هذا المَنزلِ مع مرورِ الأيّامِ؛ خوفاً مِنْ أنْ أكونَ قَدْ سَـــبَّبْتُ أيَّ ازعاجٍ؛ لكنَّها كانَتْ دائِماً عَنيدةً، لقد بدأتُ

أشـــعرُ وكـأنَّهـا أُمّي الّتي تخـافُ عليَّ، لكنْ كـانَ لابدَّ مِنْ أنْ أخرُجَ؛ فأعلَمتُ أَحدَ أصدقائي بوضعي، وحتّى أطمئنَّ على أُسرتي الّتي لا أعلمُ عنها شيئاً.

أخبرتُ السّـــيّدة بما يجولُ في ذِهني، فكانتْ مُنزَعِجةً في البدايةِ، لكنَّها تَفَهَّمتني فيما بَعد، طلبتُ منها أن أرتدي ملابس رجل الدّين الخاصةِ بزوجها المتوفى؛ لكي أتنكر بها.

فأحضـــرتِ الملابسَ لي، كُنتُ في ذلكَ الوقتِ قَدْ أطلَقْتُ شَـــعرَ اللحية، وارتديتُ القبعةَ والعباءَة، ووضـــعْتُ الصَّـــليبَ على صـــدري، وارتديتُ النَّظّارات.

عزَمتُ الخروجَ بعد التّوكُّلِ على الله، ووقفْتُ أمامَ المرآةِ مدّةَ نِصـــفِ سـاعةٍ، وأنا أُحاوِلُ أن أُقنِعَ نفسـي بأنّني شـخصٌ جديد، وأَقنَعْتُ نَفسـي باسـمي الجديدِ، ثُمَّ وَضَـعتُ بُندُقيَّتي خَلفَ عباءَتي، وَفَتحتُ بابَ المَنزِلِ لأوَّلِ مرةٍ؛ لأَخْرُجَ مِنْه.

خَرجتُ مِنْ بابِ المَنْزِل كَشخصٍ آخر، وبدأتُ أمشـي في الطُّرُقات، اسـتوقفتُ سـيارةَ أُجرةٍ وَرَكِبْتُ بِها، كُنتُ أتكلَّمُ بِلهْجَةٍ ثقيلةٍ؛ حتّى أتَقمّصُ الدَّور بِشكلٍ صحيحٍ.

السّائقُ: أينْ تُريدُ أنْ تَذْهب "أبانا"؟

كانتْ تِلكَ أوَّلَ مرةٍ يُناديني بها شَـــخْصٌ بكلمة "أبونا"، نعم، أنا الآن إنسانٌ آخرُ.

أجبتُ: بُنيَّ، أُريدُ أنْ أذْهبَ إلى كَنيسةِ المَهد.

السّائقُ: إنْ شاءَ الله "أبانا".

وبدأتْ عيناىَ تَلتَقِطُ صُـوَرَ المدينة، أُدقِّقُ النَّظَرَ إلى مَدينتي، ومشـاعِرُ الأَلَمِ تُراوِدُني، وكأنّني سائِحٌ أَجنبيٌّ في مدينتي!

أُوجِّه نَظري إلى الأشـــخاص، أتأمّلُ بِهم جيداً، أعرِفُهم ولكنْ لا أحدَ يَعرفُني، الكـلُّ مُتَّجِـهٌ إلى عَملـه، وإلى عـائِلَتِـه، أمّـا أنـا فَمُتَّجِـهٌ إلى المجهول.

هذهِ طريقي الّتي اختُرتها، لكنْ لَمْ أكنْ أتوقّعُها هكذا!

لَمْ أسمعْ من الآباءِ، والأجدادِ عن حياةٍ كهذه.

لَمْ أقرأ يوماً كتاباً يَتَحدَّثُ عن حياةِ مُطارد..

لكنّني اليومَ أتعلمُ مِنْ نَفســـي، للحظاتٍ راودَتني مشـــاعرُ غريبةٌ، شَعرتُ وكأنّي جاسوسٌ إسرائيليٌّ خائفٌ مِنْ شَعبي مُختبئٌ مِنْ أهلي!!

هذهِ المَشاعِرُ أضاءَتْ في ذِهني العديدَ مِنَ الأفكار، إذا كنتُ أُريدُ أنْ أتعلمَ كيفَ أسْـتَمرُّ في هذهِ الحياة. عليَّ أنْ أبدأ بقراءةِ حياةِ الجواسـيسِ

ودراسـتها، كيف يُجيدون التَّنكر؟ والاختباء؟ وكيف يتأقلمون بأسـمائِهم، وشخصياتِهم المُستعارةِ داخلَ المُجتمع المُستهدف؟

لقد كانتْ هذه الفكرة أوَّل الأفكار الّتي ساعدتني أنْ أسْتمرّ، وأتحدّى كلَّ أجهزةِ الشّاباك.

السّائقُ: "أبونا"، لَقد وَصلنا.

أنا: شكراً لكَ بُني.

نزلتُ من سـيّارةِ الأجرةِ ثمَّ بدأتُ السَّـير بين أزقَّة الحارةِ المحيطةِ بالكنيسة، حتّى وَقفتُ في مكان استوقدَ بي ذكريات أيّامِ الاجتياح، حيثُ كنَّا مُجتمعين في هذا الزُّقاقِ نَتحدّى بابتسامَتِنا قادةَ العدوّ.

آخٍ يا لها مِنْ ذِكريات! أيّام عِزّةٍ، وأيّامُ كرامةٍ، وها أنا اليومَ أسـيرُ لوحدي، أختبئُ خَلف هذا القِناع، لَمْ أستَطعِ السَّيطرَةَ على دُموعي، نَعَم بَكيْتُ، أَزلتُ نظّارتي، وَمَسَحْتُ دُموعي، وحاولتُ أنْ أُكمِلَ طَريقي.

فَلَم أَستَطِع، فَعُدْتُ طريقي مُسرعاً؛ لأستوقفَ سيّارةَ أُجرةٍ، متّجهاً إلى المنزل، طَرقتُ البابَ، وَفتحت السّيّدة المُحترمةُ الباب.

قالتْ في اندهاشٍ: أحمد! ماذا حصلَ، لماذا عُدْتَ بهذهِ السُّرعة؟

لَمْ أعرفْ ماذا أقول! دَخلتُ المنزل، ثُمَّ جَلَسْتُ خلفَ المَوقد.

أنا: سيّدتي، اعذريني.

قالت: ماذا هناكَ يا أحمد؟ أخبرني؟

أنا: سـيّدتي، تركتُ بلادي مليئةً بذكرياتِ العزَّة، وأنا اليومَ أسـيرُ وَحدي، وكأنَّني في غابةٍ أخافُ أنْ تتناوشَني الوحوش، اعذريني سيّدتي، فأنا الغريب في وطني، وأنتِ دنيتي.

اعذريني سيّدتي، فأنا المُتعطِّشُ لذكريات العزَّة، وأنتِ وحدك مَنْ تَسقيني كأسَ الأمل.

سيّدتي!

أغلقي باب الكرامةِ والعزِّ هذا، حتى لا تهبَّ علينا نَسـماتُ الذُّلِّ مِنَ الخارج.

استوقفتْ كلماتُ اليأسِ هذه السّيّدة، ثمَّ نظرتْ إليَّ، وقالت:

"بنيّ، ماذا أقولُ أنا، عِشتُ هذه السّنينَ لوحدي أتعلَمُ لماذا؟

لأنّي اخترتُ مِنَ الوَفاءِ مبدأً، وكلُّ إنسـانٍ لابدَّ أنْ يختارَ مبدأً له، يَعيش حياتَهُ عليهِ يقاوم كلَّ مَنْ يَعتدي عليه، نَعم أحياناً يَسْـقط، ولكنَّه لا يعرفُ الانهيار.

يعود؛ لينهضَ، ويُكملَ طريقَه، مواجهاتُ كلِّ أشـباهِ البَشـرِ الّذينَ لا يعرفُ المبدأُ طريقاً إليهم، يُقاوِمونـه، وَهو يُقاوِمَهُم، فلمْ يَكنْ أمامَهُ إلّا

خياران اثنان، لا ثالثَ لهُما؛ فإمّا أنْ يَنكســـر لهم، وإمّا أنْ يَخطوا على رؤوسهم، فاخترْ طَريقَكَ يا أحمد، هل سَتَنكسرُ لِهذه الحياة؟!".

فأَجبْتُها:

"لا سـيّدتي، لا حياةَ لي بَعد ذُلٍّ"، اسـتَهْضْـتُ نَفسـي، وقلتُ لها: "نَعم سـيّدتي"، لَقد بدأتُ مِنْ جديدٍ، أحضـــرتُ قلماً، وورقةً، وبدأتُ بِترتيب أفكاري، أوّلُ خُطوةٍ كانت: المكان، وأنا الآنَ في أكثر الأماكنِ أمْناً، ولا أحدَ يعرفُ مكاني، سوى الله، وهذه السّيّدة الّتي لا تَخْرجُ مِنَ المنزل.

لكنَّ هناك خللاً! يعرفُ الجيرانُ بأنَّ هذه السّـــيّدة زَوجها متوفى، فإن شاهدوني أخرجُ من بابِ المنزل، سوفَ يُصيبُهم الشَّك، وإذا كان هناك أحدُ الجيران مضروباً أمنياً، سوف يبلِّغُ عنّي.

حسناً، آليةُ الخروجِ يجب أن تكونَ أكثر تعقيداً.

الخطوةُ الثَّانيةُ، أحتاجُ إلى أنْ أُزَوِّرَ أوراقَ الثُّبوتيّة الخاصـــةَ بزوجِ السّيّدة، وأضع صورتي حتّى أتحركَ براحتي في المدينة.

فجأَةً توقّفْتُ للحظةٍ

وانْتابتني مشـــاعرُ، وأفكارُ غريبةٌ، فإذا كنت أنا قد شـــعرتُ بهذا الإحباط، فما هو وضع زوجتي وأطفالي الآن؟

يَجب أنْ أطمئنَّ عليهم، وأرفعَ من معنوياتهم، لكنْ هذهِ المرةَّ سَـــوفَ أَرسُم خُطتي بدقةٍ، هذه ليستْ حياتي وَحدي فكلُّ عائِلَتي مُتعلِّقةٌ بي.

يجب أنْ أُحافظَ على حياتي، ولنْ أستهتِرَ بها..

يومُ السَّبتِ سَوف يكونُ تَحرُّكي، سَوفَ أبدأُ من الآن أرسمُ خطَّتي، كلَّ خطوةٍ أخطوها ســـوفَ أَكتُبُها بدقَّةٍ، اقتربَ يومُ الجُمعة، وأنا لا زلتُ أُفكِّرُ كَيف يُمكنُ أنْ أَرى عائلتي دونَ أن يلاحظ أحدٌ ذلك؟

في ذلك الوقت كانت زوجتي توصـــلُ أطفالي كلَّ يومٍ إلى المدرســـة، عَزِمتُ على أنْ ألتقي بها خلال إيصـالِها للأطفال، وأُشـاهِدُها وأُشـاهد أبنائي.

وإذا استطعتُ أنْ أُحدِّثَها سَوفَ أفَعلُ، لكنْ بِحَذَر.

خَرجْتُ صباحَ السَّبت، رَكِبتُ أوَّلَ سيارةِ أُجرةٍ، أَوصَلتني إلى مكانٍ بعيدٍ عنْ منزلِ السّـــيّدة، ثمَّ نزلتُ منها، ثمَّ رَكبتُ ســـيارةَ أُجرةٍ أُخرى، وتوجَّهتُ إلى المدرسة.

كنتُ أرتدي زيَّ رجلِ الدِّين، وَقفْتُ على جانبِ الطَّريق الّتي تَسلُكها زَوجتي لإيصـــال الأطفال، ثمَّ شـــاهدْتُ أطفالاً خلالَ حُضـــورِهم إلى المدرســـة، فاقتَرَبَ مجموعةٌ مِنَ الأطفالِ مني، لإلقاءِ التَّحيّة عليّ، وإذا

مِنْ بينِ الأطفالِ أُشـــاهد ابني محمداً يقتربُ منّي، كَبَتُّ أنفاســـي، ثم أخرجتُ الحلوى من جيبي وقدّمتُها له.

سألتُه: أينَ والِدُك يا بني؟

أجابني: لم أُشاهْده مُنذُ أربعةِ شهورٍ، فَهو مُطارد.

وسألتُه أيضاً: وأمُّكَ يا بنيّ؟

أجابني: لَم تأتِ معي اليومَ فهي مريضةٌ،

اشتعلتِ النّارُ في صدري،

لمْ أستَطعْ أنْ أمتلكَ نفسي،

قُلت له: اذهب يا بني إلى المدرسةِ فقدْ تأخّرت، فلقد نويتُ أن أذهب إلى المنزلِ الآن، فزوجتي مريضـــةٌ، ولوحدِها في المنزل، لكنَّ المَنزِلَ مُراقبٌ في حالِ دَخلَ أيُّ شَخصٍ غريبٍ!

هذا التَّصرُّفُ سوفَ يَلفِتُ الانتباه، ماذا أفعل؟

يجب ألّا أتعامَل بردّاتِ فعل، فأحدُ أقاربي يمتلكُ محلاً تِجارياً في المدينة، سوف أقوم بزيارته.

توكّلتُ على الله، واتّجهتُ نَحوه، فتحتُ بابَ المحلِّ، ودَخَلت، وبلهجةٍ ثقيلةٍ، قلت له:

صباحُ الخيرِ

فقال: صباحُ النُّور "أبونا"

قلت: كيفك هشامُ؟

قال: عفواً أبونا! كيف عرفت اسمي؟

سألته: هلْ يُوجد أحد عندك يا هشام؟

أجاب: لا،

ثم سألته: هل تنتظرُ أحداً؟

أجاب: لا،

وقال: لكنْ أخبرني: مَن أنت؟

قُلتُ: لم تتعرفْ عليَّ بعد يا صديقي!

قالَ بشكلٍ عفويّ: أحمد!!

واللهِ إنَّكَ أحمد!

هَجَمَ عليَّ واحتضني،

أيْنَ أنتَ يا غالِ؟!

جَلسنا بَعض الوقتِ نتحدثُ عن الأَوْضاعِ، ثُمَّ استأذنْتُه، وَقبل أنْ أَخْرُج طلبتٌ منه أنْ يَذهبَ إلى مَنزلي، ويُحضرَ زوجتي إلى المستشفى.

السَّاعة الواحِدةُ مَساءً سأَكونُ في الانتظار، وفي حالِ شعرتَ بأنّكَ مُراقَب فقط ارتدي قبَّعة الرّأس، سَوف أعلمُ أن هناك مُشكلةً ما، وسوفَ أذهب.

وقلتُ له للتّأكيد: "لا تتأخرْ".

ذهبتُ إلى المستشفى، واشتريتُ هدايا لأطفالي، وانتظرتُ حتى أصبَحتْ السَّاعةُ الواحدة، ولم يحضرْ أحد!

كلُّ دقيقةٍ بعدَ السَّـــاعة الواحدةِ كانتْ تَجعلُ قَلبي يَخفق، ثوانٍ حتى نَبَضَ قلبي بما شـاهدت: (زوجتي وأطفالي)، لمْ أسـتطعِ السَّـيطرةَ على مشاعري، ذهبتُ أركُضُ إليهم وأنا مُبتسم.

لكن!

ماذا هناكَ؟ لماذا يَنظرون ليَّ هكذا؟ وكأنَّهم لا يعرفونني؟

يا إلهي! لقد أخفُتهم بشكلي!

لقد نَسـيتُ أنّي أرتدي ملابسَ رجلِ الدّين المسـيحيّ، فَسُـرعانَ ما نزعتُ القبَّعةَ والنظّاراتِ وابتسمتُ في وجوههم.

ألمْ تعرفوا والِدَكم يا أطفالي؟!

يا له من اشـتياقٍ! يا لها من أحضـانٍ أعادتْ الأمل إليّ! زوجتي وأطفالي أنتم الآن معي، أنتم الآن بأمان.

دموعُ أطفالي ملأت لحيتي، وأنا أنْظرُ في عيني زوجتي، قلتُ لها:

"أنا آسفٌ، لقد حمّلتُك مسؤوليةً الجبالُ تَعجز عنها.

اعذريني،

سَوف يأتي الزَّمنُ الّذي أُعوضُكَ بهِ عن كلِّ آلامِك".

زوجتي:

"أحمدُ لا تقلقْ علينا، نحنُ بخيرٍ، وكُلُّنا مَعك، لكن استمرَّ كما نعرِفُك".

يا لها من كلماتٍأاثارت في داخلي روحُ الصُّمود، والتَّحدي، أنْ تَسمعَ هذهِ الكلماتِ من زوجَتُكّ

سَيُعطيكَ دُفعةً كبيرةً من الصُّمود والقوَّة.

قلتُ لها:

أخبريني كيفَ الأولاد؟

أجابت: كما ترى كلُّهم بِخير، ومحمداً لَم أسْـتَطع أنْ أُحضِـره؛ لأنَّه في المدرسة.

قلتُ: جيد، كيفَ الوضع المالي؟

هل ينقصُكم شيء؟

أجابت: نَعم، لقد طالبتني المدرسـةُ بِدَفْعِ أَقساطِ الفَصل الحالي، وإلّا لنْ يَبقى محمدٌ الفصلَ القادم!

قلتُ: حسناً، سأتدبَّرُ أمرَها، المهمُّ انتبهوا لأَنْفُسِكُم جيداً، يجب أن أذهبَ الآن.

انحنيت لأُقبل أطفالي، وإذا أنا أسمعُ أكثر الكَلماتِ الّتي يَقشعرُّ لها بدني: أبي، كلُّ الأطفالِ ينامون جَنب آبائِهم، أتمنَّى أنْ أنامَ يوماً على صدرك.

يا إلهي!!

كمْ أوجَعتني هذه الكلمات!

بُنيّ، أعِدُكَ قريباً بأنّكَ سوفَ تنامُ على صدري.

عدتُ إلى المنزلِ، وأنا أهرولُ بسرعةٍ.

يا إلهي كنْ معي، يا إلهي إنّي أُحبُّ عائلتي، يا إلهي لا تبعدْني عنهم، ولا تُطِل فراقي بهم.

وفي مساءِ يومِ الخميس، ذلكَ اليومُ الذي لا أنساه، حَضر أحدُ أقاربنا، وقال:

محمودٌ، ومحمدٌ، ستذهبون اليوم؛ لتناموا عند بيتِ والدِ أمّكم.

قلنا: لماذا يا عماه؟

قال: لا تسألوا، سنذهب الآن.

ركبنا السّـيارة أنا وأخي، كنا ننظرُ في وجه بعضِـنا البعض، ونتسـاءلُ ماذا هناك؟

وصـلْنا المَنزل، تقدّمتُ أخي، وما أن فَتحتُ الباب، وإذا بشـخصٍ يُمسـكُ بي ويضعُ يديه على عينيّ، ويقول:

مَن أنا يا وَلد؟

قلت في نفسي: هل يعقل أن يكون هو؟

يا ربيييييييي، هل هو حقاً؟!

سحبتُ أنفاسي وصرختُ بأعلى صوتي

"والله يا أخوتي لنْ يعلم أحدٌ بهذه المشاعِر حتى يَعيشها"

بـدأ والـدي يقبّلُني، ويحضـــنُني: "ألم أعِدك يـا ولـد أن تنـامِ على صدري؟ واليومِ سوفَ أُنفّذ وعدي"، بلى، كنتَ ولا زلتَ الأصدقَ والأوْفى في عينيّ يا والدي.

بقينا طوالِ اللّيل نلعبُ معه، ونمزحُ، كانتْ هذهِ أوّلَ مرةٍ نجلس مع والدي كلَّ هذهِ الفترة.

أصـبحت السّـاعة الثّانيةُ صـباحاً، ذهبنا مع أبي إلى غرفةِ النّوم، كنت أنا وأخي نحيطُ بهِ على السَّرير، وضـعتُ رأسي على صدرهِ لأنام،

وبَدأتُ أستمعُ إلى دقّات قَلبه، وأَستشعِرُ أنفاسَه، بدأتُ أشعرُ بدفءٍ، حتى سمعتُ صوتَ جدتي تقول:

أحمد، استيقِظْ!

نَهضْتُ مفزوعاً مع أبي، كُنت أنْظُرُ بِصمت، وهو يتكلمُ على الهاتف، لوهلةٍ شعرتُ وكأنّي لا أسمعُ شيئاً، كنتُ أرى كلَّ شيءٍ، لكنّي لا أسمعُ شئاًء، كلُّ البيتِ أصابَهُ الفزع!

والدي مرتبكُ، يَرتدي حذاءَهُ بسرعةٍ، لحظاتٌ وكأنّي في حُلم، غادرَ والدي المنزل، كُنتُ أقفُ على النّافذة، وأُشاهِدهُ وَهو يُفارِقُني بعيداً، ذهبتُ إلى جدتي: "ماذا هناك؟" لمْ تُجب. ذهبتُ إلى خالاتي: "ماذا هناك؟" لمْ يُجب أحد!!

الكلُّ كانَ مفزوعاً،

ذهبتُ؛ لأيقظَ أخي محمداً

وإذا بي أسمعُ صُراخ خالتي، الجيشُ حولَ المنزلِ، بدأتُ أصرخُ على أخي محمدٍ وأنا أبكي، وأقول:

محمدٌ، استيقظ!

الجيش!

الجيش!

دموعٌ، وخوفٌ، وصـــراخٌ، فجّروا الباب، وعاثوا في المنزل خراباً، وحقّقوا مع كلِّ العائلةِ، وفي النّهاية عدتُ أنا، وأخي إلى المنزل.

ونحنُ نحلمُ باليومِ الذي ســـوفَ ننامُ مرةً أُخرى على صـــدرِ والدِنا، كانتْ هذهِ أولَ سنةٍ من حياةِ المطاردةِ لأبي، لتبدأَ حياةُ الفوضـى الأكثرُ عنفاً وحنكةً.

فهو الذّئبُ المتخفّي بزيّ القدّيس، ثماني ســـنواتٍ، وهو يتجوَّلُ في مدنِ الضفةِ.

ثماني سنواتٍ خاضَ فيها مئات التجارب.

كانتْ هذهِ بدايةَ الفوضـى.

كتاب

" تضحية ونصر"1)

هو سلسـةٌ من الأجزاءِ تشرحُ حياةَ المطاردةِ، والمقاومةِ في الضـفةِ، الجزءُ الأولُ يتكلمُ عن بدايةِ حياةِ المطاردةِ، ومصـاعِبها النّفسـيّةِ، وحالةِ اليأسِ والاحباطِ التي تصيبُ المطاردَ، والمصاعبِ التي تواجههُ في بدايةِ المطاردةِ، وكيفَ يتخطاها، ويتحولُ من إنســانٍ مليءٍ بالمشــاعرِ إلى إنســانٍ مجردٍ من المشــاعرِ، ليتعاملَ بحنكةٍ وذكاءٍ في كلِّ تفاصــيلِ حياتهِ.

أما كيفَ استطاعَ أحمدُ أن يَرسمَ كلَّ تفاصيلِ حياتهِ؟، وما الخطوطُ الحمراءُ، التي لا يقتربُ منها،؟ فكلُّ هذهِ التَّجاربِ سَوف أقومُ بذكرِها في الجزءِ الثّاني من كتابِ " تضحية ونصر"، إن شاء الله.

تضحية ونصر

« 1 »

الكاتب
محمود أحمد بلبول
2022

رواية

(" تضحية ونصر " 1)

هي سلسلةٌ من الأجزاءِ التي تشرحُ حياةَ المقاومين في فلسطين ، وتحديداً المطاردين الذين يتعقّبُهم الاحتلال الإسرائيلىّ بهدف اغتيالهم.

فيتحدّث جزءنا الأوّل عن حياة المطارد، وحالته النّفسية التي يتخللها الشّعور باليأس والإحباط ، والمصاعب التى تعتريه في بداية مطاردته ، وتحوّله من إنسانٍ مليءٍ بالمشاعرِ إلى إنسانٍ قابضٍ على جمرِ مشاعرهِ ، ليتعامل بحنكةٍ وذكاءٍ في كلّ تفاصيل حياته.

أمّا كيف يستطيع المطادر أن يرسم كلّ تفاصيل حياته، والخطوط التي لا يقترب منها، سنراها في الأجزاء القادمة في ("تضحية ونصر" 2) من خلال حكاية بطل روايتنا أحمد.

الكاتب:محمود أحمد بلبول

آذار / 2022